

حياة قلم

عَبَّاسٌ مُحَمَّدٌ الْعَقَّادُ

حَيَاتُ قَلْبِي

النَّاشِرُ
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
جميع الحقوق محفوظة للناشر
١٩٦٩
بيروت

مقدمة الناشر

لا نظن أصدق من سيرة قلم يرويها صاحبه ، وبخاصة اذا كان يحسن تشقيق الكلام وتصريف المعاني كما يفعل الاديب « العقاد » . فمن مولده في أسوان ، بلد العصور والدهور ، وموطن السماء الصباحية ، ومشتى العظماء الى القاهرة حيث هبط طالب المدرسة العنيد « عباس » ليحرب حظه في الحياة بقلمه - يتحفنا ذلك العملاق جسما وعقلا بسلسلة مترابطة الحلقات من أحداث زمانه وتغيرات نظرتة الى الناس والافكار ونظراتهم اليه . ومن « كل الناس الا عباس » ننطلق في فترة وجيزة الى قول سعد زغلول فيه « هذا شرف لا أدعيه وتهمة لا أدفعها » . وتتقلب الايام بالعقاد ، فيغدو وفديا ، ثم يتمرد على روتينية الوفد ومساوماته . وتضيق به الحال ، فيبيع كتبه كي يتقوت . ثم انه يسكن منزلا ما أسرع ان تخطب له الجارات فيه عروما لا يعرفها ، ويخشى التصريح بالرفض ولا يود ان يزيغ على نفسه القبول .. ويهجر ذلك المسكن .

وبعد هذا يلتقي بعقري القلم الساخر، ذلك الانسان الذي كان يرى الحياة « قبض الريح » ، ويتصرف فيها « عالماشي » حتى يبلغ « حصاد الهشيم » أعني ابراهيم المازني ، ذلك الرجل الضئيل الذي سماه التلاميذ « ماردا » . وما أجمل قلم العقاد في تذكره ووفائه لذلك الصديق !

وبين العمل الصحفي وامتهان التدريس تنتقل الحياة بالعقاد .. فمن اشارة الى ضرورة استقالته من الوظيفة الى فرار

شيطاني من حجزه في اسوان يوم اختلف مع المفتش الانكليزي
فكتب ذلك الاجنبي المتعجرف طالبا نفيه الى مالطة ..
وبين دخول السجن من جريرة القلم والخروج لحياء
مهرجان عند تمثال سعد ، نعيًا على النحاس ورفاقه ، يظل العقاد
حر الرأي لا يرضخ لحاجة المال ولا نشدان الزعامة .. انه عنيد
يحمل رأسه على رأس قلمه ، ومن رأس قلمه يمج رأيه الحر
من رأسه .

أي عظماء قابل صاحب « حياة قلم » في حياته الصحفية :
سعد ، كتشنر ، برناردشو ، اميل لودفيغ .. وغير هؤلاء
كثير .. لكنه يقول : « انني أفضل قراءة سيرة العظيم على
لقياه .. » وهو يعطي عنهم لمسات حية رسمها وحي قلمه المبدع
حتى لتكاد الشخصية العظيمة منهم تنطق بجماع رأيها في عبارة
واحدة او فقرة قصيرة ..

ان هذا هو العقاد ويكفيه ما قاله فيه سعد زغلول ، ابو
الشعب المصري البار « أحب ان اقرأ له . »

جبار القلم هذا هو الذي يرق ويرهف في قلمه حتى يكون
الطف من النسيم حين يفيض بوحه عن لواعج عاطفته المشبوبة ،
لكنه غرام جديد ، انه غرام بالحرية المطلقة والاستقلال الذاتي
السمح ، دون انتقاص للغير ولا عنجهية فردية .. ومن أقدر
على الموازنة بين اطراف هذا الموقف الدقيق من العقاد !!

كل هذا ما دفعنا الى استكمال صورة « العقاد » الذهنية في
نفوس القراء العرب ، فعمدنا الى نشر هذا السفر القيم راجين
به اطلاق القارئ العربي على شخصية واحد من عمالقة
الادب العربي الحديث ، على ان يكون القارئ نفسه هو الحكم ،
ونرجو ان نكون قد فزنا ببعض التوفيق ، معترفين ان ايفاء
الحق لاصحابه شيء لا نطمح فيه ولا نطمح الى عليائه ..

الناشر

تقديم طاهر الطنجي

الآن سبق وصدر كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد .. وقد حوى أربعين مقالا تناولت حياته الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع في نفسه من ايمان وعقيدة ومبادئ ، وبما تأثر به من بيئة وأساتذة ، أو بعبارة جامعة : « عباس العقاد الانسان » .. !

وكنت أملت في مقدمة « أنا » الى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي انساني ، وجانب اجتماعي عام ، يتصل بمن عاصروهم وعاشروهم من الناس في حياته الصحافية والأدبية والسياسية . ويتناول الأحداث التي اشترك فيها ، وخاض من أجلها عدة معارك قلمية . وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو في السادسة عشرة من عمره .

وفي منتصف اغسطس سنة ١٩٥٧ م أخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان « حياة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في أموان ، وتحدث عن

ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل الذي ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم «عبد الله النديم» في ذلك الحين، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعي الجرائد ، وفي مقدمتهم المعلم «عكريشة» ، وعن أحاديثه مع السامة من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة في الحرب العالمية الأولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد إليها إلى آخر ما تناوله في الفصل الثامن في هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م .

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التي تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالج العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التي تناولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه .. ! ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، واحداث واطوار ، لهذا القلم في الميدان العام .. فهل عوضتنا كتاباته الاخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

- ١ -

الواقع أن حياة العقاد العامة ، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لابناء هذا الجيل من زملائه الادباء والصحافيين . ومن السهل الرجوع إليها في الصحف والمجلات التي اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات ميامسية واجتماعية وأدبية . وقد كان كاتب الوفد الاول منذ فجر هذه

الثورة الى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ م كما سييجيء
في هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثورة ، وأبدى آراءه في رجالها
وأحداثها كسياسي مفكر ، وكوطني كبير ، مستقلا عن آراء
حزبه ، وان كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التي
تتفق مع آرائه في ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول
يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الامتاز كامل
سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصري حين
سافر الوفد الى أوروبا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا في مجل
الثقافة في ٢٧ يوليو سنة - ١٩٤٠ م بعنوان : « سعد زغلول كما
عرفته ، رجلا ، وزعيما ، وسياميا » . وقد جاء فيه :
« وسألته مرة عن رأيه في كاتب كبير - يعني العقاد -
فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية
صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة
أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا
أحاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد
.. وله اسلوب أدبي فريد » !!

- ٢ -

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذي ألفه العقاد
سنة ١٩٣٦ م يستطيعون أن يلموا بتاريخ زعيم الثورة
واحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها الى أن توفي « سعد »
في أغسطس سنة ١٩٢٧ م . ويعد هذا الكتاب من حياته

السياسية و « حياة قلمه » وطورا من اطواره الوطنية .
ولما توفي سعد زغلول ، وكانت الاحزاب المصرية مؤتلفه
مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبثت
الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الاحرار الدستوريين . وتولى
زعيم هذا الحزب رياسة الوزارة ، وعطل الحياة النيابية ، وحكم
البلاد بيد من حديد ، حتى دعي حكمه باليد الحديدية . ورأى
« العقاد » أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتوري ،
وكان « موسولينى » قد ظهر في ايطاليا بالدكتاتورية السياسية ،
فألف كتابه « الحكم المطلق » في القرن العشرين ، وحمل فيه على
هذا الحكم الاستبدادي حملة شعواء ، وأبان فساده سياسيا
وعلميا واجتماعيا . وتحدث عن الديموقراطية ونجاحها ، ونجاح
الحكم النيابي . ثم اصدر كتاب « اليد القوية في مصر » سنة
١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح عدوي في بعض
البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته في المانيا ،
فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم اخرج كتاب « هتلر في
الميزان » . ثم كتاب « النازية والاديان » ..!

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد اعيدت الحياة النيابية ، وكان
العقاد وقتئذ عضوا في مجلس النواب . ثم اشيع أن الملك فؤاد
سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر
المجلس في احدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل
الدستور ، وحل البرلمان . واحتد في خطابه ، ودفعته وطنيته
الجريئة الصريحة الى أن قال كلمته المشهورة :

« ان الأمة على استعداد لان تسحق أكبر رأس في البلاد
يخون الدستور ، ولا يصونه » ..!

وكان لهذه الكلمة دويها في جميع الاوساط ، واتخذها

المنافقون والملكيون حجة ضده ، وحبالة ينصبونها للايقاع به والانتقام من جرأته . ولما كان وقتئذ عضوا في مجلس النواب الذي أعيد بعد استقالة رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحزر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الملكية » . فحوكم في اكتوبر سنة ١٩٣٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضائها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما افرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد فورا ضريح سعد زغلول وأنشد في مستقبله من الجماهير قصيدته الوطنية : « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

الى الذاهب الباقي ذهاب مجدد

وعند ثرى سعد مثاب ومسجد

الى مرجع الاحرار في الشرق كله

الى قبلة فيها الامام موسد

نحيي من الدنيا التي نستعيدها

مكانا من الدنيا له العود احمد

ثم ختمها بقوله :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر

فهانذا في ساحة الخلد أولد

ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى

وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما

سيعهدني كل كما كان يعهد

وبعد خروجه من السجن ببضعة أعوام استكثبته لمجلة
« كل شيء » في « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات
جمعها في كتاب بعنوان : « في عالم السدود والقيود » .
ولا ريب أن هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة
من حياته وحياة قلمه . وقد استكثبته يوما لمجلة « المصور »
عن تجاربه في الانتخابات ، وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها .
فكتب مقالا طويلا . نقتبس منه ما يلي :

« مارست الانتخابات بأنواعها التي عرفناها في مصر منذ
اعلان النظام الدستوري الحديث . مارست الانتخاب على
درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت الاخفاق
في هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح
بالكثرة الساحقة .

« وفي وسمي أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه
الانواع . وان كانت الكلمات المحققة في شئون الانتخاب أقل من
القليل . !!

« فالمحقق عندي في الانتخاب على درجتين أنه نظام لا مزية
له على الاطلاق . وانما تظهر صورته في حالتين غير محمودتين :
احدهما تدخل الادارة ، والثانية شراء الاصوات ..

« أما الفوز بالتزكية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين
الدمستوريين ، وأشاروا في علاجه الى اعادة باب الترشيح مرة
أخرى في كل دائرة لم يتقدم لها أكثر من مرشح واحد .

« أما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته
الكثيرة ، وعرفت أصعب هذه الصعوبات . وهو بذل الوعود

الانتخابية والسعي في تحقيقها . واذا قلت الوعود الانتخابية ، فانما أعني الوعود العامة ، ولا أعني الوعود الشخصية . لانني اعلنت في كل دائرة تقدمت فيها انني لن أقبل الوساطة في مسألة شخصية ، الا أن تكون تقريراً لحق ، أو دفعا لمظلمة . . «

- ٣ -

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ م - ومنذ قامت الثورة القومية في سنة ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول - في جهاد وطني عنيف ، مويدا لسياسته ، فقد كان يقدره ، ويؤمن باخلاصه ووطنيته . وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ في عهده هي جريدة الوفد الاولى ، فكان هو كاتبها الجريء ، ومهمها الناقد الذي يرمي به الوفد خصومه . ولم تر كاتبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة الى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات في الادب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء .

وقد عانى العقاد ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد في الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ، محاميا عن الاهداف التي قام الوفد من اجلها وهي الحرية والامستقلال والدمستور ، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لانه كان يكره الحزبية ، ولم يكن كاتبا حزبيا . وقد كان يرى أن الوفد في ذلك الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية » و « فكرة سياسية حرة » ، وان الصحافة الوفدية التي يكتب فيها هي ومييلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة . وقد كتب عن العقيدة الوفدية ،

فقال : « .. نحن لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج والاقوال ، وانما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها أعمال الخصوم ، قبل ان تنطق بها السنة الاصدقاء والانصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى في عبارة وجيزة هي : « المحافظة على القومية المصرية بقوة الامة المصرية » . ومن اجل هذا يبغضها أشد البغض كل من يكرهون ان تكون لهذه الامة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها في وجوه أعدائها . ولو لم تكن « الوفدية » هي مناط هذه القوة ، لما أبغضها الطامعون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالارادة . ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لا بغضهم المستعمرون ومنكرو ارادة الامة .. »

الى أن يقول عن الصحافة الوفدية التي كان أكبر كتابها : « .. انما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما اليها . وما من مبدأ أصيل تدين به صحافة مصرية بريئة الا والامة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى اقناع ، أو تدليل .. » هكذا كان رأيه في « الوفد » . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدءا وطنيا كان يؤمن به كل الايمان ، وهو « المحافظة على قومية الامة بقوة الامة » لا بقوة أحد سواها .

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية الى حزب سياسي يقوم على برامج ، ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسعى ما استطاع الى تولي الوزارة ، ويتهافت عليها تهافت المستوزرين !

وفي أوائل عام ١٩٣٤ م نظم العقاد « نشيده القومي »
وكان وقتئذ يحزر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء في
مطلع هذا النشيد :

قد رفعنا العلم للعلا والقدى
في ضمان السماء
أرض الهرم حي مهد الهدى
حي أم البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء
مصر ومفكريها ، وأقاموا له حفلة تكريم في مسرح حديقة
الازبكية - برياسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من
اعلام الفكر والبيان ، واعضاء البرلمان والوزراء ورجال
التعليم ، وكرائم السيدات . وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد
الدكتور طه حسين ، فألقى خطبة ضافية عن « العقاد ولواء
الشعر » قال فيها :

« انه مهما كرم العقاد ، فان مكرميته لن يبلغوه حقه من
التكريم بالقياس الى احسان العقاد اليهم .. ! »
ثم يستطرد ، فيقول : « تسألونني لماذا أومن بالعقاد في
الشعر الحديث ، وأؤمن به وحده ، وجوابي يسير جدا ، لماذا؟ .
لاني أجد عند العقاد ما لا أجد عند غيره من الشعراء .. وان
شئتم ، فاني لا أجد عند العقاد ما أجد عند غيره من الشعراء ،
لاني حين اسمع شعر العقاد او حين أخلو الى شعر العقاد ، فانما
أسمع نفسي ، وأخلو الى نفسي .

« انما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش
فيه ، وحين اسمع لشعر العقاد ، انما أسمع الحياة المصرية

الحديثة ، وأتبعين المستقبل الرائع للادب العربي الحديث .. «
وبعد ذلك يضرب الامثلة من « ديوان العقاد » . ويشيد
بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان» التي يقول فيها
انه لم يقرأ مثلها لشاعر في أوروبا القديمة وأوروبا الحديثة ، ثم
يقول في النهاية : « ضبعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولسوا
للادباء والشعراء : أمرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه
نكم صاحبه » .. !!

- ٥ -

وكان خريف سنة ١٩٣٤ م ، وتألقت وزارة محمد نسيم
باشا الثالثة في ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة
عبد الفتاح يحيى باشا التي سارت على سياسة امماعيل صدقي
باشا . وكانت الامة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقي في
الحكم والحياة النيابية التي قامت على دستوره الجديد ، فلما
تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقي باشا ، انتظرت
الامة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣ م ونظامه النيابي ، وانتظرت
من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد أعلن تأييده للوزارة
النسيمية ، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ في الاستجابة لرغبة
الامة . وكلما الحت عليه بالرجوع الى الحياة النيابية ودستور
سنة ١٩٢٣ م الذي كان خيرا من دستور صدقي باشا ماطل
وتغافل ، واخذ يحكم الامة حكما فرديا غير دستوري . وأثارت
سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الاول » منذ ظهرت بسواد
هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة أشهر ، فأخذ ينقد
سياسته ويحذر رجال الوفد من اطماعه ونواياه . فلم يوافق
الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمية التي كان

يؤيدها ، ويعلم صلتها بالانجليز . وحدثت مشادة بينهما في بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التي كانت تماليء هذه الوزارة . وكان « العقاد » يكتب مقالاته وقتئذ في جريدة « روز اليوسف » ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا ان يصدر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ م بيانا سياسيا جعل عنوانه : « بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان : « قصة الدستور في بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وان للدستور في بيان نسيم باشا - على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين - لقصة ، وانها لتختلف عن كل ما أذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون ، حين طلعا علينا بامطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه ، ثم باعجوبة الخريف والشتاء .. لكن مالنا وللاشياء الذي يتطرق اليه التحريف والتصحيف أو الشدة في التعبير والامساءة في التصوير .. وأمامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقديم .. »

ثم سرد هذه الوقائع التي أحصاها فكانت ثلاثا وعشرين واقعة . وفي مقدمتها : « ولي نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٣٢ م بالذات ، اذ اكتفى الامر الملكي الذي امتصدره في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ م بان يشير الى أن البلاد سيوضع لها نظام دستوري ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكي الصادر له أبلغه المندوب السامي ان الحكومة البريطانية ترى « ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وان مصلحة البلاد تقتضي عند منوح الفرصة أن يكون شكل

الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه
المسألة . »

وقد علق العقاد في نهاية مقاله على الوقائع التي تضمنها
البيان ، فقال :

« وبعد ، أفليست هذه القصة التي استخرجناها بكل أمانة
من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ما سبق لنا
ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن
الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولي الحكم متفاهما
مع « مستر بيترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين
كاملتين ، وان الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو
دستور ١٩٢٣ م ، بل دستورا جديدا محدودا !! »

- ٦ -

لقد اقسام « العقاد » لزعيم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٣٥
وهو يشير الى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته -
وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالاسكندرية - الا ينتهي
هذا القلم حتى تنتهي وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد
صدق.. فما كاد يمضي اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى
امتقلت الوزارة النسيمية امتقالة أشبه ما تكون بالاقالة
وتولت الحكم بعدها وزارة « علي ماهر باشا » !

وأصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد في سياسته التي
كانت تهدف الى تولي الوزارة في ذلك الحين ، مع مهادنة
الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين في مصر ، واشتد في
حملته على الوفد في معارضته ، واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادله

في اجتماع ضمه وضم مسكرتير الوفد وبعض أعضائه ، وذكره « بانه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، وأجابه قائلاً :

« انك زعيم الوفد ، لان هؤلاء الذين حولك اجلسوك على هذا الكرسي ، أما انا ، فان قلبي وحده هو الذي وضعني في مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الامة » .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة . وكان قد انفصل قبل ذلك عن عبد القادر حمزة ، صاحب «البلاغ» لخلاف شخصي لا صلة له بالسياسة . فاتفق مع صاحب امتياز جريدة « الضياء » عبد الحميد حمدي على اصدار جريدته لحسابه . وكان هو مدير « السيامنة » فيما رئيس التحرير « كلیم أبو سيف » . وصدر العدد الاول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م في ١٢ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملاً أعمدة الصفحة الاولى بعنوان : « عهد وذكرى » ، جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

« في هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومثايرون على خطة معروفة معهودة لزمانها عشرين سنة في خدمة الصحافة والقضية الوطنية . فمن الاطالة على حضرات القراء ، أن نفيض في الشرح ، ونسهب في العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم ان نقول اننا منمضي على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، وامستغنيا عن الفضول والتكرار . فان كان لا بد من ايضاح لهذا الاجمال ، فايضاح هذا الاجمال اننا سنعلن ما نعتقده من رأي في غير محاباة ولا احجام ، واننا لن نتردد في ابداء الرأي الذي نؤمن به ، كلما وجب ابداءه وتعزيزه ، واننا منذ اليوم الذي قضت فيه هذه الخطة نفسها بان نستقل عن جميع الهيئات والاحزاب قد آلينا على أنفسنا الا يعوق هذا

الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على أن نميطه
وتعلو عليه . . فسيامتنا في جميع المسائل والحوادث ميامسة
قومية تنظر الى الاعمال ، لا الى العناوين ، والى المبادئ القويمة ،
والمصالح المصرية ، لا الى الاحزاب والهيئات . . »

ثم انتقل الى حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه -
تلك الحرية التي حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :
« حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه هما المثل الاعلى
فيما نتوخاه من عمل صحافي ومن خلق قومي تدين به الامة ،
وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلبا من المطالب ، ولا برنامجا من
البرامج ، ولا وعدا من الوعود ! .. »

« حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه أنفس من
الاستقلال ، لان الامة التي تملك رأيها ، وتملك شجاعة ايمانها
وفكره الخصب ، وأدبه الرائع ، وعلمه الفيض - هي
مستقلة فعلا وحقا ، ولو احتلتها فيالق الغاصبين . . فأما
إذا خسرت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها ، فلا خير لها في
استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لانها تساق
سوق العبيد لكل من خطر له أن يسودها من الاقرباء أو البعداء .
وتعيش عيشة العبيد ، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب . .
ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين . لان
العبودية في النفوس والقلوب لا في القيود والاغلال . . »

ثم أخذ يحصي الحقائق التي دافع عنها ، واخلف فيها مع
الوفد ، ورأى فيها آراء مديدة صدقتها الحوادث ، واثبتت
صحتها الايام . ثم قال في النهاية :

« .. نعم ما صنعناه ، ونصنعه في كل حين . وذلك هو
العهد الذي نعاهد القراء عليه . وتلك هي الذكرى التي نعود
بها الى الازهان والضمائر . . » !

هذه مقتبسات من الافتتاحية التي صدر بها هذا العدد وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة اصدارها . ولكنه ما لبث ان حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهي في المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة الى الكتابة الادبية وتأليف الكتب كما كانت عادته في كل ازمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد في ميدان التأليف والكتابة في الصحف الادبية والعلمية مجالا لعلمه البليغ .

انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حيناً .. ثم كان انشقاق الوفد الثاني بزعامة احمد ماهر ، وتألف حزب « السعديين » . وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه ان يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر بانصرافه عن الكتابة السياسية . وكان وقتئذ يؤلف كتاب « سعد زغلول » الذي صدر في مئتمائة وثلاثين صفحة . ولما اصدر هذا الحزب جريدة « الأساس » كان محمود فهمي النقراشي زعيم هذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل احمد ماهر ، فألح على صديقه « عباس العقاد » ان يحرر في جريدة الأساس ، فاخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا في آرائه التي يراها في الاحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته في كل ما يكتب ، وخصص « يوم الثلاثاء » للكتابة الادبية . ولكن جهده الاكبر منذ تعطلت جريدة الضياء في سنة ١٩٣٦ قد انصرف الى تأليف الكتب وتحرير الفصول الادبية في المجلات الشهرية والاسبوعية .

ونستطيع ان نقول ان المدة التي بدأت من سنة ١٩٣٦ الى ان انتهت بوفاته في مارس ١٩٦٤ كانت أخصب انتاجا ، واكثر تأليفا من غيرها في « حياة قلمه » المباركة . فقد ألف فيها خمسة

وسبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيّف ألفها طول حياته .
هذا عدا نحو خمسة عشر الف مقال او تزيد كتبها في الآداب
والعلوم والفنون في الصحف العلمية والادبية مما يملأ مئات من
الكتب الاخرى الى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

- ٨ -

ولقد كان ديمقراطيا في حياته ، واشتراكيا تعاونيا في
مذهبه . فقد سئل يوما : « لماذا هو ديموقراطي ؟ » فأجاب :
« لانني لست بالمدل ولست بالذليل ، ولست بالمؤمن بصلاحيّة
الاستبداد في جميع الاحوال ، وهذه هي الاسباب التي تبغض الي
الاستبداد حيث كان ، وتحبب الي الديموقراطية حيث كانت .
ولو كانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

« فالحرية في أقبح أوصافها خير من الاستبداد .. وقد
شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألّوفا بعد الوفا من السنين .. »

وقال عن مذهبه الاشتراكي من مقال كتبه في ذلك :
« انه هو اشتراكية التعاون التي تحداها ولاة الامر في وطننا ،
لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح ، وتحديد
الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الامة وهي
اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق ، كلما تتابعت بها التجربة
بعد التجربة ، على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار
والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ، والكفاية الضرورية في
ميادين العمل كافة ... »

وقد كتب في عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العروبة
والعرب والسياسة العربية من جوانبها العامة . وكتب عن
كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا
قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة التركية، والثورة الصينية،
والثورة المصرية . ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد
الناصر :

« .. وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات
غيرنا نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على
الاصول الكبرى .

« فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها الرئيس جمال
عبد الناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وانا اعتقد
ان الخلاف عليها أقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا
الموضوع .

« صواب ولا شك ان الحركة المصرية ، لا توصف بأنها
تمرد عسكري » .

« و صواب ولا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساوىء
العهود الماضية . وهذا هو باب الأسف والاسى ، ولكنه كذلك
باب الامل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج ،
فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذ لم يكن يكمن في
غمضة عين أن تزول رواسب قرون » .

« و صواب كذلك ، ان الشك آفة معطلة للجهود معطلة
للافكار والآراء ، فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لأصحاب
الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد اجيال

واجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيح البليغ قبل شفيح الانصاف .

« يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الان ان نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ، ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها وأهواءها ..) ثم يقول : (.. ولكن أية نتيجة كان يمكن ان يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟ . كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار) .

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون أكثر من ظلم ، لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج ، ويبيس من عقابه .. »

ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك مائر ما جاء في « فلسفة الثورة » بالتعليق .. ويقول في ختام المقال :
« .. على ان الصفحات الثمانين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في أوسع حدودها . فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم ، لا انفصال لها من وطنه ، وهي العالم العربي ، والعالم الافريقي والعالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه .

« .. أين نحن من العالم العربي ؟

« أين نحن من العالم الافريقي ؟

« أين نحن من العالم الاسلامي ؟

« نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنا

ان نجعل علاقتنا بها ومستقبلنا معها . يقول الرئيس جمال :
(ان نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت
ارض المنطقة العربية . فنحن اقوياء اقوياء ..)
« ويقول : (اننا لن نستطيع بحال من الاحوال حتى لو
اردنا - ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور
اليوم في اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتي
مليون من الافريقيين . اننا في قلب افريقيا ، والنيل شريان الحياة
لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ..) .

« ويقول الرئيس عن العالم الاسلامي : (حين امرح
بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في اندونيسيا وخمسين
مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو ، وسيام وبورما ،
وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، واكثر من مائة مليون
في منطقة الشرق الاوسط ، واربعين مليونا داخل الاتحاد
السوفيتي ، وملايين غيرهم في ارجاء الارض المتباعدة - حين
امرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة
واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن أن
يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن
حدود ولائهم لاوطانهم الاصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم
ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة) .

ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل . وليس الاهتمام
به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوادع في عقر داره ،
بل اخشى ان اقول انه من اعباء الشيخوخة قبل اوانها .. بل
من همومها في ابانها ، ان كان حمل الهموم البعيدة وقفا على
الشيوخ . !

« ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه
يدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة .
« وماذا نصنع ان أصبحت أفريقية للمستعمرين الاوربيين
ولم تصبح في الغد القريب افريقية للافريقيين .
« وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية
الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من
التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها
من غمار النذل والامتكانة ، أو غمار القنوط والحيرة ؟
« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا
تنام .. » !

١٠

ذلك بعض ما جاء في مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » .
وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم تجمع في كتاب . وقد
آثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم .
أما مقالاته الفلسفية والادبية والعلمية الاخرى فقد
أضفنا بعد الفصل الثامن الى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوي
على « ذكريات شخصية » ومقالات عن « أرض الميعاد » وهي بحوث
كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى في
الادب والفلسفة والشعر والدين . وهذه المقالات اخترناها مما
لم ينشر في كتاب من كتبه . وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات
مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو
المتجانسة في الفن ، والفلسفة والعلوم ، والآداب عما
قريب ! ..
وقد أنتج في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة أضعاف ما أنتجه

في غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة . فمنذ قامت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ الى أن توفي ألف ما يربو على أربعين كتابا . وهذا يدل على نشاطه الكبيرة في شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره .

ولقد كانت الدور العلمية والادبية تتسابق الى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته . وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية ان يفضل اقتراح الجريدة او المجلة في الموضوع الادبي أو العلمي الذي تريده ، اما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملئ عليه اقتراحا سياسيا يكتب فيه ، ولو كان مسعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه . وفي ذلك يقول :

« انني افضل اقتراح المقالات الادبية للمجلات والصحف اسيرة لسببين :

« أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا اضيق الوقت بين المناسب والانسب ، وبين الحسن والاحسن . وثانيهما ان محرري المجلة او الصحيفة أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لان الكتاب قد يكررون الموضوع اذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاورة ولا مقابله . فلا محل للاعتراض على محرر المجلة اذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله . ولا مسا من بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه ، بل هو نقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد » ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

« وانني على ترحيبي بالاقتراح الادبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان مسعد زغلول رحمه الله - وهو زعيمنا الذي نحبه ونجمله - يعلم

ذلك ، فلا يقترح علي الكتابة ، ولا الكف عن الكتابة . وغاية ما يستبيحه من طلب الكتابة اذا ارادها ان يبسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوله فيها : فان وجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : « أود أن اقرأ لك شيئاً في هذه المسألة » . !

« وقد حدث أن اللورد جورج لويد « المندوب السامي في ذلك الحين » طلب اليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل اليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد علي ان قال قولته المشهورة : « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها » .

« ولم يفض الينا بما حدث الا بعد انقضاء الازمة . وقد سيرت فيها الاماطيل للانذار والارهاب ، أو للتهويل والتمثيل . وانا نحمد الله علي ما فرق به بين الادب والسياسة ، فلولا ذلك ما طلبنا بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الادبية ، ورفضنا الاقتراح في السياسة وأنكرناه وان تحركت له الاماطيل » ! ..

هذا ما أردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وان نتابع أحداثه وتطوراته السياسية والادبية بالاجمال ، بعد ما وقف به الاستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م . فقد كان في عزمه أن يكمله . ولامر ما وقف به هذا الموقف ..

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم صورة واضحة - وان كانت مركزة في لمحات - عن جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته الفذة .. !

فحياة قلم العقاد فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أي كاتب أو أديب في عصره . ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة وآداب ، كان أمتاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة السى
ثروتها الكبرى . ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت من
المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا تعوض ، لانها عصاره
فكر قدير ، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة ثقافة اصيلة، وانتاج
ذهن عبقرى ، عاش صاحبه اديبا مجاهدا ، وعالما مفكرا ،
ومؤلفا غزير الانتاج واسع الاطلاع، وفيلسوبا مامي المبادئ،
عظمه الاهداف .. !

طاهر احمد الطناحي

ولادة قلم

ألا أعرف نفسي ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائلة ، لانه في عرفنا جميعا غني عن الجواب ، أو جوابه بلسان الحال يغني عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا .. كيف لا تعرف نفسك ؟ .. تعرفها بالتحقيق ! ومع هذا اقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التي تدفعني الى أكبر الاعمال وأصغر الاعمال على السواء : ان الانسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وأنه كثيرا ما يكون في تخمينه عنها غريبا يبحث عن مر غريب ، ولا فرق في هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا في الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار .

حديث مع نفسي !

انني أعمل في تحرير الصحف من خمسين سنة ، (١) وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة ... وأزيد القارئ فأقول : انني منذ بلغت من الطفولة وفهمت شيئا يسمى

(١) كتب هذا الفصل - وهو اول فصول حياة قلم - في اغسطس سنة ١٩٥٧ .

المستقبل لم اعرف لي أملا في الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أوا الامر غير صناعة الصحافة .

ولكنني مع هذا امأل نفسي الان كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها في طفولتي ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى .. بل أمل الحياة الاكبر ؟ فلا أدري باعث هذا الاختيار على مسبيل التحقيق ، ولا استغني فيه عن التخمين أو التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل الباحث في السير والتراجم حين يعمد الى التخمين عن حياة الآخرين .

وأكثر من هذا انني « اضبط » نفسي وهي تروغ مني وتحاول ان تقنعني بوجهة غير الوجهة التي تعنيها او تعينني ، ثم نتلاقى مبتسمين ، وأكاد أسأها : أنت هنا ؟ وتكاد تسألني : وها أنت يا صاح ؟ .. ثم لا نلبث أن نعلم أننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الاولى ، واننا نحتاج بعدها الى كلمة أو كلمات نشوب بعدها الى التفاهم والاتفاق .

قلت انني لم أعرف لي في طفولتي أملا غير صناعة القلم . وهذا صحيح .. وهذا غير صحيح .. ! صحيح اذا نظرنا الى الوجة القصوى في نهاية الطريق . وغير صحيح اذا نظرنا الى عطفة هنا أو منحرج هناك أو زقاق بين بين في اثناء الطريق .. كلا ! بل تمنيت حيننا ان أكون جنديا . وتمتيت حيننا آخر

أن أكون عالما زراعيًا ، وهما فيما يبدو صناعتان متباعدتان !
ولكنني لم البث أن علمت انني تعلقت بالجندية لأنني أريد
صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم الزراعية لانني أريد صناعة
القلم ، وان صناعة القلم كانت تلمحني بعينيها الساحرتين من
وراء النقاب وأنا أحسبني أغازل صناعة السيف أو أغازل
صناعة المنجل والمحراث ..

حادث مع قومندان الانجليز

كانت لعبة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لعبة
الاطفال المفضلة في أسوان . وكانت دروب المدينة وحيشان
المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش
السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الانجليز ..
وكلهم بين قادة وجنود من صغار الاطفال الذين لا يجاوزون
العاشرة ، لان المسألة كانت جدا - ولم تكن لعبا فحسب - مع
الاطفال في هذه السن على الخصوص . اذ كانوا يسمعون أن
الدراويش اذا دخلوا قرية قتلوا رجالها ، ومبوا نساءها ،
وحملوا اطفالها مطعونين على أسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم
هذه الحرب عن كل شواغل من شواغل الخطر والخوف فضلا عن
شواغل الالعب ..

ومما أتمثله أمامي حتى الساعة ، وأبتسم له كلما تمثله
- منظر زميلنا المقدام « عبد المعطي فرج » قائد الجيش
السوداني المغير على مكتب « القومندان » في المعسكر الانجليزي
وهو يصيح وأذنه في يد القومندان الجبار :
« مش انا يا عمي .. مش أنا والله يا مستر » .. ويكاد
القومندان يقهقه وهو يدفعه الى الخارج ويزجره قائلا « سأعلمك

كيف تنط يا خنزير ! » .

ذلك اننا في هذه الهجمة زدناها حبتين ، ولعلها زادت في الحقيقة أكثر من حبتين ! ..

قررنا - نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية - ان نهجم حقا على القومندان الانجليزي في معقله بجانب المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخافه الانجليز من مرء ومسيه ويستعيذ من شره أهل المدينة الخاضعون لاحكامه العرفية ، فما هو الا أن مسمع دبة عبد المعطي تحت السور حتى وثب الى الباب مستغربا ان يجترىء أحد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وضح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار - عبد المعطي - بالعدر الوحيد الذي لا يقبل التصديق في هذا الحرج الشديد : اذنه بين اصبعي الرجل ولسانه يصيح : انه ليس هو المقبوض عليه .

على الربابة !

هذه اللعبة - لعبة الجيوش - كانت شغلنا الشاغل في المدينة التي لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبي أنا على الاقل لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد .. لأنني كنت قائد الجيش المصري الذي يطلب المبارزة من الاعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا - أو أعداؤنا - يستمعون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في أيام الحملة السودانية وأغنوها عن المسارح وملاعب البهلوانات

والقرقوزات ، لاذحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد
- طلاب هذا الضرب من القصص والانشيد - ومن لم يجد من
الطلاب بغيته عند شاعر الرباية طلبها في بيت هنا او قطعة هناك
من كتب المحفوظات أو روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف
الفخر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل ..

وكنت أنا قد جريت نظم الشعر في بعض المقاصد
المدرسية ، فشجعتني التجربة على نظم الاناشيد الحماسية
لميدان المبارزة ، وأردت أن أثبت للسامعين انني صاحب تلك
الأناشيد فالتزمت في نظمها أن أذكر اسمي كاملا في
كل قطعة منها . وانتصرت بها انتصارا أعظم من انتصار القتال.
اذ أوشكت المناوشة كلها ان تنحصر في الاستماع الى قصائد
الفخر والحماسة بغير قتال ..

وانتهت مدتي في الجندية بنهاية هذه الجندية المتطوعة !!
.. فلم يعسر عليّ ان أفهم ان حماسة النشيد هي بيت القصيد
عندي من الجندية والتجنيد ، وانها كانت منفسا للملكة الناشئة
التي لم تستقر بعد على قرار ..

سر الولع بالزراعة

أما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت انه في
دخيلته ولع بتطبيق الاشعار التي أقرأها عن الازهار والعصافير
والحدائق وجداول الماء والانهار .. وربما كان مدخلها الى
نفسي أعمق من ذلك وأخفى مكانا على النظرة الاولى التي
نظرتها بها يوم ذاك ، فان علوم الزراعة تعين علي مراقبة أطوار
الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين
الدرامات النفسية وبين تلك الغرائب والاطوار ، ولا أراني
حتى الساعة أوثر كتابا في مسيرة علم من اعلام التاريخ على

كتاب في طبائع الاحياء والحشرات او آثارها القديمة في بقايا
الحفريات ..

كانت أمنية الجندي وعلوم الزراعة اذن ترجمة لامنية
الكتابة مستعارة في صور الصناعات الاخرى ، وبخاصة حين
نذكر انها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة
ولا من عناية بالحياة والاحياء ..

ومثل هذه الترجمة فيما أظن معهودة في كل محاولة ناشئة
قبل أن تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشيء يتمنى شيئاً بعد
شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الاخير ..
ويومئذ يعلم انها كانت جميعاً أمنية واحدة في باطنها ، وانه كان
بينه وبين نفسه في هرب ولقاء كأنهما في طراد البحث
والاستخفاء .

أول مجلة :

وأحسبني حتى الساعة لم ابلغ من معرفة الباعث الصحفي
في نفسي مبلغ اليقين الجازم الذي لا رجعة فيه ولكنني على يقين
جازم من انني انشأت صحيفة في طفولتي الباكرة ، وانني لم
أنشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المنظرة في بيتي ، وأكثر
ما فيه صحف أسبوعية أو شهرية قديمة ، وأكثر هذه الصحف
القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها أكثر عدداً ولا
أكبر حظوة عندي يومذاك من مجلة « الأمتاذ » .

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه أبناء الريف ولا
تخلو منظرة في بلدة ريفية من دولاب منه على الاقل ، يفرغ في
جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح أو بغير مفتاح ، ويغلب
ان يكون الباب بغير مفتاح لان الودائع التي يحرس عليها

أصحابها لا تودع في المناظر على تناول الداخل الغريب .
وعلى تعداد الصحف في دولاب المنظرة عندنا لم تكن بينها
صحيفة أبرع في العناوين من صحف عبد الله نديم ، وكان هذا
الصحفي المطبوع أستاذ زمانه ، بل لعله امتاذ من أستاذة
العناوين في كل زمان ..

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة ، وعنوان
« التنكيت والتبكيث » لاسم صحيفة ، وعنوان « المسامير »
لكتاب هجاء ، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول
والاخبار .

معارضة النديم !

ولفتتني العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف
النديم ، ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة
وأعمد الى مكان العنوان منها فأكتبه بخطي متأنقا وأعارض
عنوان « الاستاذ » بعنوان « التلميذ » .

أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة
لمقالة من أشهر المقالات التي ترده صداها زماناً في البيئات
المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم
فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الاولى .
فكتبت مقالي الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما
فعلنا فعلكم » .

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعي
اننا والاوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون هذه
الدعوى ، ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق
البعيد بيننا وبينهم . فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك

دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلمت مثلنا ..

واستغرقت مقالة النديم أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : « ان آخر الدواء الكي وقد بلغ السيل الزبي فان رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا .. أمكننا أن نقول لاوريا نحن نحن وانتم أنتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب فريقا بعد فريق حق لاوريا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشي وتصديق في قولها : لسو كنتم مثلنا لفعلمت فعلنا » .

وتناولت في مقالي فقرات النديم واحدة واحدة برود لا أذكرها الان ، ولكني أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفجواه اننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم - أيها الغربيون - فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال وامتباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم ، ومسترون فعلنا عما قريب ..

ثم اصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد لم يكن لها من قراء غير زملائي في المدرسة وأقاربي المشجعين أو المتندرين المتفكهيين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن ..

عادة .. من أيامها !

اخالني الآن على حق اذا قلت ان هذا السر - سر دولاب المنظرة - هو كذلك سر الاتجاه الاول عندي الى صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح انني تعودت من أيامها عادة لم تفارقني

الى اليوم في تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة .. فهذه الورقة التي اكتب عليها الان مقبوضة على النحو الذي اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » ... ومتى كتبتها طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعها في غلاف مستطيل كالغلاف الذي توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الاوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة أوصي بصنعها اذا نفذت من السوق ، كما تنفذ أحيانا في بعض أيام الحروب العالمية .

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف أنفسنا باحثين مترددين، قبل أن نصل الى اليقين ، ان وصلنا الى يقين ..

لكنني لا تفوتني كلمة سمعتها من صديق كان يناقشني كلما تساءلت عن سر اتجاهي الى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة الى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ الا يكفي أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت الى صناعة الكتابة ؟ ..

ولست على رأي الصديق في هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فان الملكة النفسية تخلق فينا قبل أن تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئاً الا لانني سأكون كاتباً يوماً من الايام متى تيسرت الأداة .

على أن شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يأبى عليه أن يتمنى الوزارة أن يتمنى الواجهة الاجتماعية أو يتمشى صناعة القلم مبتدئاً بعمل من الاعمال الكتابية غير الصحافة ، ولست أعتقد أن مئات الاطباء والمهندسين والصناع وذوي الملكات المتنوعة الذين ظهروا من ابناء جيلنا قد امتلهموا اختيار صناعاتهم من وحي القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل

لعلمهم توجهوا وجهتهم في مستقبلهم على الرغم من جميع تلك العلوم ..

جيل وجيل

كان عبد الله النديم امستاذا مدرسته في الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : اما تلميذ يقتدي به ، واما خصم يبغضه وينحي عليه .. ونشأ مصطفى كامل في هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون ان الخديو لم يعرض عن الامتياز ويقبل على التلميذ الا لان أبناء الامرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحاربهم في الثورة العراقية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختر الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على استاذة لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » :

« من أجل هذا قال أكثر الامراء من الامرة الحاكمة على مصر أن مقام الامارة لا يقرب منه النديم لانه عدو امرته وجنسه ، وبهذه السيامنة المضحكة آل الامر الى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنسية وامتطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك » .

الا ان الامر لم يكن في هذه المسألة خاصة أمر اللغة الافرنجية ، لان الخديو قرب اليه الشيخ علي يوسف الازهري وهو ممن انشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا الى محاكاته في المنهج والاملوب ، ولكنها مسألة المدرمة الصحفية التي كانت تحمل علم الدعوة أمام الصحافة المسخرة للدعاية الاجنبية ، ولم

تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم في أول عهد الاحتلال غير
مدرسة النديم .

ويصدق هذا على جيل النديم والجيل الذي تلاه ، ولكنه لا
يصدق على الجيل الذي نشأ بعد ذلك بسنوات ، لان هذه الفترة
قد اتسعت لعوامل جديدة في السيامة والتفكير تخالف العوامل
التي غلبت على الثورة العراقية أو على جيل المخضرمين بين الثورة
والاحتلال .

أنا .. والنديم

ولهذا أرجع الى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتي الصحفية فلا
أستطيع أن أقول انني على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ،
وان كان النديم أول من لفتني الى العمل في الصحافة وكانت
مطالعة أول مطالعة وجهتني الى هذه الصناعة ..

لا بل هناك مشابهاة عديدة بين النديم وبينني لا أدري هل
جاءت من وحي القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد مني
ولا من أحد ..

فقد تعلمت صناعة التلفزيون كما تعلمها النديم ، واشتغلت
بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت
الامتخاف على الطريقة البوليسية أكثر من مرة في ابان الحرب
العالمية الاولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته في أعقاب
الثورة العراقية ..

ولكنني - مع هذه المشابهاة - لم أشعر من قبل ولا أشعر
الان بأن الرجل قدوتي المختارة بين أمثلة النبوغ التي أتمناها
أو بين « الشخصيات » المثالية التي أجلها واحب أن أنتهي
اليها ..

وأحسب أن المرجع في هذا الاختلاف الى مسبيين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، والاخر يرجع الى المزاج الشخصي الذي فطرت عليه ..

فالأحوال العامة في عصرنا تخالف الاحوال العامة قبيل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العراقية والاحتلال ، لان دخول الانجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملاً « قانونياً » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار باباً مفتوحاً على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الامل به من جانب المصريين ، ولو الى حين ..

وهذا فيما نظن أحد الاسباب التي تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه الى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركناً مهماً في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه ..

أما في عصرنا - نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال - فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وانما يقع العبء الأكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نفرط في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لا تفيدنا في جهادنا ان صبح أنها كانت تفيدنا قبل ذلك ..

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع الى الاحوال العامة .

وأما سبب الاختلاف الذي يرجع الى المزاج الشخصي فخلاصته في كلمتين : ان الرجل كان ينزع كثيراً أو قليلاً الى شيء من التهريج ، وانني نشأت في بيئتي البيتية بين أبوين

محافظين أشد المحافظة على سميت الوقار و « اللياقة » ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة ..

كل الناس .. ولا عباس !

ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة انني رفضت كل الرفض أن ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري ، وانني رفضت أشد الرفض أن أجيب نداء المعلم حين دعاني باسم « عباس حلمي » جرياً على تقاليد ذلك العهد التي بقيت الى الان في أسماء المعاصرين .. فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم أبيه ولكنهم كانوا يلقبون بألقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وما شاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الاسماع ، فبقيت واحداً من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا اصراري على رفض اللقب المستعمر لكان اسمي اليوم « عباس حلمي محمود » كما كتب في قائمة « التصنيف » أي توفيق الاسماء والالقباب ..

والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الامرة كلمة الامهات التي كن يرددنها لاطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أميغه ، فاذا ذهبوا الى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب: امزح مع من شئت يا بني .. ولكن « كل الناس ولا عباس ! »

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر الى مثله الأعلى فلا يراه في صاحب التنكيت والتبكييت وصاحب المسامير ، واحسبني لم أفضل الامتاز الامام محمد عبده على صاحبنا النديم الا لسبب من جملة أسباب ترجع الى هذا المزاج ، فان

وقار محمد عبده هو القدوة التي أرتضيها حين أنظر الى النديم
فيظفر مني بالثناء ولا يظفر مني بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا
هذا الخلق صنوان ينتميان الى الثورة العرابية والى مدرسة
جمال الدين والى العمامة والبيئة الازهرية ..

مدرستان ! ..

وأيا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبينني ، فالعصر
الذي نشأنا فيه لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار
الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لانه كان عصرنا
مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب احدهما ولم يخلفه العصر
القادم على رأي واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما
يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث .

كان عصرنا « برج بابل » يبني ويعاد بناؤه بين عام
وعام ..

كنا نعيش في عصر الجامعة الاسلامية على مذاهب ، ونعيش
في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديد
الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمانا مذهبا واحدا في قضية من
قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ..

فالجامعة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين
ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعني بالجامعة الاسلامية أن تكون
جامعة شعوب متيقظة مسؤولة عن شؤونها مرعية الحقوق مع
ملوكها وأمرائها ، فضلا عن حقوقها مع الطامعين المتربصين
بها ..

ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء وتريد

من الجامعة الاسلامية أن تكون وحدة سيامية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان ..

ومدرسة الجهاد الوطني على هذه الحال :
مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا الرأي ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة في أمر التعويل على السيادة العثمانية . لان حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة - كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين - ذريعة الى ضياع البلد في معركة النزاع على التركة أو في مساومات التقسيم والتفريق ! ..

بلبال ؟

ويزيد البرج بلبالا خليط الاصوات المتبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الاجنبية ..
فمن هؤلاء من كان يضرب المعول في أركان الدولة العثمانية جاهدا مكابرا باسم الاصلاح والثورة على الامتداد ، وهو في باطن الامر صنيعة للدول وممسار من ممامرة الامتعمار الذين يقصدون في الواقع الى هدم الاسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين ..
ومن هؤلاء من كان يعلن الفيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الامر صنيعة السيامسة الفرنسية في الشرق يناوىء الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها ..

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الاسلامية ليتخذها ومييلة الى ايقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التي تستفيد من تهمة التعصب الديني ، وتلوح بها لاقناع الاجانب بحاجتهم الدائمة الى الحماية من دولة أوربية ..

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حبا للحرية ولا انصافا للامة بل تعزيزا لسلطان الخديو .. وتمهيدا لاطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطاني ومستشاريها في الدواوين ..

بلبال ، وأي بلبال ..

وأشد منه اختلاطا بلبال اخر في ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدرىها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء ، وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة .. لأننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالي بالتحريير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات ..

بلبال يهون الى جانبه ضوضاء برج بابل .. فأين يذهب الطفل الناشئ في دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقبه .. ؟!

وانا في السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ما عرض لي في هذا الطريق من حيرة وشك وعشرات وأزمات .

لكنني أعلم علم اليقين انني كنت على قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت

لاول مرة في تحرير صحيفة الدستور ..

الجامعة الاسلامية عندي هي جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان ..

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ولا نستمتع لمن يحاربها باسم الشورى أو النعمة على الامتداد ..

الدول الاجنبية لا تنفعنا ان لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهددون يهدوها فيما لهم من حق وعليهم من واجب ..

الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنسه مفرط في مجاملة « يلدز » و « عابدين » مقصر في مساعيه نحو « مصر للمصريين » .

الملوك والامراء يخدمون القضايا بمقدار ما تخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم ..

الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الامتداد بحال من الاحوال ..

داخل النطاق

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابتي عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا ..

لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » الا في منامبية واحدة وهي إعلان الدستور ، ويومئذ كتبت أبياتا أهنته بها وأسجل

تاريخ السنة بحساب الحروف الابدية ، فكان التاريخ هذه
الشرطة :

« قد أنشأ الدستور عبد الحميد » .

ومجموع حروفها بحساب الجمل « ١٣٢٦ » وهي السنة
الهجرية التي أعلن فيها الدستور ..

ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور - وهي
من صحف الحزب الوطني - برثاء أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ،
ولكنني أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت في ذلك
المقام من نقد سياسته قبل الأمتانة وقبل الخديو وقبل السيادة
العثمانية ، وكاشفت الامتازة فريد وجدي بحرجي وحرج
صحيفته وهي لسان الجامعة الاسلامية الاولى ولسان الحزب
الوطني الثاني بعد اللواء ، فقال لي رحمه الله انه يفهم هذا
الحرج وانه يقوم عني بما أتحاشاه ، فأثرت الصمت عن الرثاء
على ثناء بغير نقد ، أو نقد متحفظ ، متحرج ، بين مضطرب
الآراء ..

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة أشهر لا أكتب
فيها ولا أكتب اليها، ولكنني كتبت اليها مقالي الوحيد من الخارج
يوم أعلن الدستور في ايران ، وقلت فيه مهنتا للشاه الصغير :
لو كنت في فرنسا لكان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس
السادس عشر ، ولكنك تحمد الله لانك في بلد اسلامي وتحمد
لشعبك - ولا ريب - جميل هذا الصنيع .

والان - بعد نصف قرن كامل - أقول انني قد جربت هذا
البرنامج السياسي، الصحفي، في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها
جميعا .. فحمدت مغبة هذه التجربة ، ولم أجد فيما وجدته من

الحوادث المتناقضة برنامجا أصبح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الامم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين ..

وبعد ، فإني لا أحب أن أنافق القارىء باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء الأكذب ، فأقول ان الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وانها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

.. الاستقلال ..

كلا ! ... ليس من السهل على كل ناشئ في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائص والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة وامستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات ..

ولكنني أعود فأقول انه لا استقلال الرأي ، ولا امتقامة القصد ، كانت كافية لهدايتي الى مسبيلي لو لم أمتد من ظروف الاونة التي نشأت فيها وظروف البلد الذي نشأت فيه .. لقد كانت الاونة في مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة تكوين الرأي جماعات جماعات ، فلا ينطوي الشاب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التي انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخامر مضلل في كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التي نشأت فيها بلدتي أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ في مثل مني أن يأوي بها الى صومعة

من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو
يبصر من الشؤون العامة ، بغير تضليل أو تهويل .. وتهب
الزوبعة القومية فلا تفاجئنا في وسط غبارها فتعمي البصائر
عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويدا رويدا فلا تصل إلينا حتى
تنكشف على جلاء ..

وهل في ذلك عبرة ؟ ..

نعم .. عبر قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشباب في
فترة تكوين الرأي أن يروض نفسه سنوات على النظر الى ما
حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فاذا دخل في جماعة منها
بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تمييز وتقدير ، ولم
يعمل فيها آلة من الآلات ..

قلم يشرق طريقته

صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتي المخطوطة - التلميذ - وأنا تلميذ في الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك في يدي مبلغا من المال يكفي للتفكير في طبع ورقة ... ان وجدت المطبعة حيث كنت في الصعيد الاقصى .. وهي غير موجودة ! ..

لكنني الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالي في مديرية الشرقية ، وعرفت لي مبلغا من المال أقبضه في أول كل شهر : خمسة جنيهاً ! ..

ومن هذه الجنيهاً الخمسة أستطيع ان أدخر جنيهاً في كل شهر ، وان اجمع من هذه الجنيهاً المدخرة مبلغا يكفي للانفاق على العددين الاولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك الى المال لان الصحيفة تباع وتأتي بتكاليفها عددا بعد عدة ، أو عددين بعد عددين ..

وكنت قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة في مدينة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لانني اشتقت الى بلدي بعد ان فارقتها يافعا لأول مرة فنظمت قصيدة على وزن قصيدة « المعري » التي يقول في مطلعها :

عللاني فان بيض الاماني
فانيت والظلام ليس بفان

فقلت في مطلع قصيدتي :

ذكراني نعيمها ذكراني

حبذا لو علمتما ما أعاني

وقلت منها أذكر أسوان

« ألت أرجو عودة الى اسوان »

ولا يحضرني الآن الشطر الاول من البيت ..

ورأقت القصيدة من سمعوا من الزملاء المتأدين، فاقترحوا
علي طبعها ليحتفظ كل منهم بنسخة منها .. وتكفل أحدهم
بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعا أكثر من ثلاثين
قرشا لمائتي نسخة ، وقيل لنا انها تكلفنا اقل من خمسين قرشا
اذا طبعنا منها مائتي نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق
بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفة ، وهي في
تقديرنا تقع في ثماني صفحات بدلا من صفحتين .

حسبة ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفي للبدء
في طبع الصحيفة على بركة الله ! ..

وماذا يبقى بعد الطبع مما يحتاج الى التدبير والاستعداد؟ ..
لا شيء ! ..

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لانني محرر الصحيفة
الوحيد ..

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضمونا
وهؤلاء قراؤنا يتهافتون على اقتناء الطبعة الاولى ويستنفدون
منها مائتين في يوم أو يومين ؟

ومن البديهي انني لا أصدر الصحيفة وانا موظف بالحكومة
... ولا أطبعها ، من ثم ، في الزقازيق حيث طبعت القصيدة .
الا انها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس اهون من
الانتقال الى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس ابناء
القاهرة بأقل من ابناء الزقازيق اقبالا على قراءة المنظوم والمنثور
.. وكنت اذهب الى القاهرة مرة في كل اسبوع او اسبوعين ،
اشهد التمثيل في مسرح الشيخ سلامة حجازي ، وأزور حي
الازهر باحثا عن الكتب الادبية القديمة بثمن رخيص ..

فذهبت الى القاهرة ، وأحببت أن أحقق وأدقق وامستوي
المعلومات اللازمة قبل الشروع في العمل .. ووقع اختياري -
لاستقصاء البحث في المسألة - على صاحب مكتبة عظيم الخبرة
بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصفحيين
والادباء ، تعودت ان اشترى منه ما أجده عنده وان أوصيه
باستحضار الكتب النادرة من الطبقات المرجوعة ..

والواقع ان « الاستقصاء » الذي عولت عليه لم يكن ليعوقني
عن المضي فيما نويت ، وانما هو مسألة شكلية على حكم العادة
في الاستشارة والاستخارة .. وليقل صاحبنا ما يقول ، فانني
أعددت الصحيفة كتابة وتقسима وتبويبا وتسمية واخطارا
للحكومة ، ولم يبق من معداتها شيء غير الطبع والتوزيع ..

وكنت اتردد بين اسمين: اسم « البيرق » واسم « رجع الصدى »،
ولا أحسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعנית ما فيه
من الدلالة على الصحيفة التي تقود الآراء ويلتف بها الشعراء
كما يلتفون بالبيرق ، أو عנית ما فيه من الدلالة على الصحيفة
التي ترده أصداء الآراء ولا تزيد على عرض الحوادث والانباء ..

لا أحسبني قصبت الى هذه التفرقة ، ولكنني انتهيت على غير قصد مني الى تفضيل اسم « رجع الصدى » على اسم « البيرق » ... وكتبت العنوان بخطي ليخرجه الحفار كما كتبتة ، بدعة من بدع التجديد في العناوين ! ..
ولست انسى نظرة الكتبي العتيق الي من تحت نظارته الملحومة في موضعين أو ثلاثة ! ..

« ماذا؟ تترك خدمة «الميري» وتشتغل بالغازيط والجرائل؟ ان كنت لا تدرك ما انت مقدم عليه فانتظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء «الصائعين» الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك في وظيفتك ولا يصلون اليه ... لا يا صاحبي .. انني أراك أعقل من هذا يا بني .. فلا تخيب املي فيك .. ! »
ولم يقنعني كلامه ، لأنني لم اسمع منه جديدا عن خدمة « الميري » وقد استها في عرف أبناء جيله ، ولم يزحزحني تحذيره قيد شعرة عن نية المضى في الاستعداد والتنفيذ ..

وانما زحزحني عن هذه النية قيد فرسخ - لا قيد شعرة وحسب - منظر أو منظران من المناظر التي كانت تتكرر في كل حلقة صحفية ولا يستغربها أحد من المتفرجين لانها من أدوات المهنة المتفق عليها ومن ادوارها التي تعاد في كل قصة ، فلا يجهلها الا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجرنالجية وجماعة الغازيط وتجار التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الاسبوعية وكان « مدير » احدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل باصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذي صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله الى المشتركين للتحويل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذي يريد أن

يبالغ في اثبات صناعة التسول واستدرار شفقة المحسنين ،
والمسيئين ! ..

فصاح به المدير : ما ورايك ؟

فأخرج له الوكيل ايصالا معادا من احد المشتركين ، وقال
ان الاشتراك مسدد قبل الآن ..

فسأله المدير : واين الايصال الآخر ؟

قال الوكيل : ان الرجل قطعه ورماه في خلقتي ! ..

فهم المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه في
خلقتك ؟ مستحيل .. ان فضيحة بيته معروفة يخشى من الاشارة
اليها بكلمة ، فلا تقل انه قطع الايصال ورماه في خلقتك
الشريفة ، بل قل انك سكرت بالاشتراك كعادتك وجئتنا
برائحة الخمر تفوح من فيك ..

وكان هذا أول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها
ولا أقبحها ، وفي واحد منها الكفاية للعدول على الاقل عن الخطوة
الاولى ، وقد عدلت عنها الى الآن .

ولكن .. لم احتقر الصحافة

ان هذه المناظر المخجلة حققت في نظري طائفة من المتطفلين
على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا نزلت
بأعلامها النابهين الى منزلة أولئك المتطفلين ، ولست اعتقد انني
كنت مستطيما ان احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر
المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لان قوة
الدعوة القلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغا
لا يدانيه ما بلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ،
ولا اخالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة

اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة . .
كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذواب
المطامع في الشرقين : الادنى والاقصى، ومركزا لكل دعوة يديرها
دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاه
ودعاة الاصلاح في ايران وأواسط آسيا ، ودعاة الحركات
الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الاقطار الافريقية من شمالها
في بلاد المغرب الى جنوبها في بلاد السواحل وزنجبار .

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم
وعلى أرواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوا أو يغفلوا طرفه
عين عن أخطارها وعواقبها، وقد حدث أن حركة في القاهرة زلزلت
عرش عبد الحميد في الاستانة ، وان رجلا شهرته دعوة القلم
واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه
اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم
قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين .

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال ، ومن
طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه
في شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما ان المويلحي
الكبير (١) صاحب «مصباح الشرق» - دخل مكتب «المؤيد» ووجد
فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال
وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : قادر أنت يا رب أن تسقط
هذا السقف على من تحته فيستريح عبد الحميد ! .. قال محمد
عبد ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين!
وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التي تخلقها الحقيقة الواقعة،
وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح !

(١) يقصد ابراهيم المويلحي صاحب صحيفة « مصباح الشرق » والوالد
محمد المويلحي .

تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم تنتهياً لها مدينة اخرى على مثالها من الآستانة عاصمة الخلافة الى ما دونها من عواصم الولايات والحكومات ، ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة ..

فالآستانة هي عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز في العالم الاسلامي وعالم السياسة الشرقية على اجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الاقلام والالسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الادنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة على نطاق واسع ، وحكمها حكم الآستانة في حرية الدعوة والاجتماع ..

أما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في ايام الفاطميين ، مركز داعي الدعوة ، أستاذ الاماتذة في فنون الدعوة بالقول والاشارة ، ابي بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات ! ..

ثم أصبحت مركز الاعلان الإقتصادي والسياسي في الحقبة التي اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء ..

ثم جعلها الخديو اسماعيل قطعة من أوروبا بمحاكمها المختلطة ، وامتيازاتها الاجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية في شؤون الحكم أو شؤون الثقافة ..

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت

فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط
الدعوة الحديث ..

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته ..

وفيما تقدم من العوامل والمهيات كفاية ..
ولكننا نحسب انها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن
التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة في هذه
الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشه
الأسماع الى كل صوت ينادي بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة
والتحذير ..

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » في جدتها قبل ان تبتدلها
كثرة التداول ، وتدخلها الألفة في عداد اليوميات الرتيبة التي
تنتظر في أوقاتها ولا تحتاج الى لهفة في الانتظار ..

وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة في نفاذها ، وبعد
مداها، فاعجب للبون الشاسع بين ضخامة اثرها وفضالها وسائلها،
وانظر الى البون الشاسع مثلا في صحيفة كصحيفة « العروة
الوثقى » أو « أبو نضارة » أو « الطائف » أو « الاستاذ » .
وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الاخبار البوليسيه
او البرقيات المقتضية ، وتحاول ان تتبع أثرها الى أقصى مداه
فلا تستقصيه ، لانك قد تسمع صدها في تخوم الصين وعلى متون
الرمال في جوف الصحراء ..

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة
وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها
الناس ويتشوقون اليها ودعوة تطلبهم وتحتال عليهم بأفانين
الترغيب والتقريب .

ان منظر الحساب بين مدير الصحيفة الاسبوعية ووكيلها قد
يصح أن يثنيني عن طبع العدد الاول من صحيفتي المطوية وأن
يضعف أملني في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عددين ..
ولكن هل تراه يذهلني عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها
من حولي كالدوامة المدوية في لجة البحر الموار بالامواج
والرياح ؟ ..

ان ألف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر.
قداسة الدين ، وان الف دجال باسم الصحافة لا يمسحون
قداسة « الكلمة » الحية بين أناس يحتاجون الى الكلمة حاجتهم
الى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل . .
ان الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا
تستطيع أن تملأ الجو من أعلاه الى أدناه ، ولا أن تستوعبه
بجميع زواياه ..

فإذا وجدت هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو غير
المقبولة لوجود طبقات في الجو الصحفي الى جانبها ، تنزل من
الملك الى الوزير ومن الوزير الى الرئيس الصغير ومن الرؤساء
الى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء ما دون ذلك في
طبقات ذلك الجو الفسيح ..

وليقل العائب العاتب ما شاء ، فانه لن يستطيع ان يقول في
النهاية شيئاً عن تاريخ الشرق الحديث دون ان يقول معه شيئاً
عن الدعوة القلمية وعن الصحافة والصحفيين .

صحيفة الدستور

كانت صحيفة « الدستور » التي أصدرها الامتاذ « محمد

فريد وجدي « منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت في تحريرها ..

ولا أقول انه كان « عمل ضرورة »

ولا أقول كذلك انه كان عمل اختيار .

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، اذا صح هذا التعبير ، وأبادر فأقول انه صحيح غاية الصحة ، لاننا في اعمالنا التي نعدّها من معالم حياتنا لا نستطيع ان نقول عن عمل واحد انه كله اختيار ، أو أنه كله اضطرار ..

وكان في وسعي قبل العمل في تحرير الدستور ان أعمل في تحرير «اللواء» أو في الترجمة باللواء على الأصح .. لانني علمت انهم يطلبون مترجمين يعرفون الانجليزية او الفرنسية ، بعد تفكيرهم في انشاء «لواءات» غير «اللواء العربي» تصدر باسم « الاستاندرد » و « ليتندار » ..

التحرير أو الترجمة

وكانت الترجمة الصحفية من اعمال تلك الفترة التي كان امثالي يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة «الأسوانية» مما يرشحنني لادائها ، ويجعلني من المفضلين في « امتحاناتها » . فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الانجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة « أو الاشياء » .

وكانت صحف المدارس المقروءة في انجلترا بين «المطالعات» الاضافية المقررة علينا في السنة الرابعة الابتدائية .

والى هنا نتساوى جميعا في مدارس القطر كله ، ثم يأتي دور النشأة الاسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن في الوجهين .

كانت المكتبات الافرنجية تفتح في موسم الشتاء لبيع الكتب

والمجلات والصحف الاجنبية المحلية ، وكان كبار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموسم الذي كان يمتد من ديسمبر الى مارس ، وتتبع زيارتهم احيانا دعوات خاصة نجلس فيها مع ابنائهم ولا نتكلم اثناءها بغير اللغة الاجنبية .
وتضاف الى ذلك حالتان طارئتان على أموان - في ذلك الحين - لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة السودان وبناء الخزان ..

ففي أثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضي المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح ، طائفة من الانجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولد من اولاد المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الاوراق الرسمية أو ترجمة العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان « نصف الفرنك » نفحة مسخية يحصل عليها « الولد » المترجم الذي يستطيع ان يخط في الورق بضعة مسطور تدل على معنى من المعاني مفهوم بالاشارة او بالتخمين .. فأما « الولد » الذي تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد في معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار ..

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر في هذه الصحف وفي صحف السائحين ، فلا يفوتنا - مع تتابع النظر - أن نعرف اقسام الصحيفة وعنايتها وأماكن البرقيات والاخبار منها ، وان نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح ..

مع مصطفى كامل ..

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون الانجليزية خطر لي ان استقيل من وظيفتي وان ارشح نفسي للعمل فيه ..

ولكنني ترددت ، وطال التردد حتى احجمت ، ثم فضلت ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسببين :

« أولهما » انني اذا اقدمت على هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لأكتب لا لترجم ، فانني ما احببت الصحافة لانها مورد رزق افضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني أحببتها لانها مجال للكتابة او صناعة القلم بغير ومساطة من صناعة النقل او الترجمة ! ..

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فان محادثتي الاولى له لم تشجعني على مزاملته في عمل دائم ، وصورته لي رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة او « اللقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحيح قولة قالها أو رأيا ارتآه ..

كنت اتبرع بالتعليم في المدرسة الاسلامية بأموان ، وحضر مصطفى كامل متفقدا للمدرسة ومعه الكاتبة الفرنسية مدام « آدم جوليت » وسيدة انجليزية ، وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة .. فأمل مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وايقاع ، ثم طلب من التلاميذ

ان يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ..

والتفت مصطفى كامل الي ، والى الاستاذ « محمد شلبي عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا ان التلاميذ معذورون .. لانهم في أسوان يعلمون ان الغيم الذي يظلل الرؤوس شيء نافع لا يضر بون به المثل لقلة النفع .. فلعله انفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر ..

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » مثله ان يتقبله بالامتحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدأ لي ان الاستدراك عليه - ولو من باب الفكاهة - أمر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الآن انها لم تكن منه فلتة عارضة في زيارة عاجلة ، لان حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شيء من سماحة الفكاهة أو سماحة التوفيق بين الآراء ...

فريد وجدي .. والدستور

ولم يطل بي الانتظار حتى اعلن الامتاذ فريد وجدي عن عزمه على اصدار « الدستور » .

ولم يكن اسم « فريد وجدي » غريبا عني ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الاسلامية الفلسفية .. فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلامفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته ، وخرجت أقول لنفسي ان اكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني

عن العمل معه ، لانني عجبت لحرية فكره، مع اشتهاهه بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والخرج في شؤون الدين والدنيا .. فما من فكرة قط كان يرى انها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجّة والقدرة على الاقناع هو الذي كان يسوغ له ان يسمع كل رأي ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال. ودام عملي في صحيفة الدستور من عددها الاول الى عددها الاخير الا أشهرها قليلة فارقتها فيها ثم عدت اليها .. فأكاد اقول ان ما خالفته فيه اثناء هذه المدة اكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه .

كان شديد الايمان بالجامعة الاسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير في اخرج أوقات الحاجة الى المال . ومن ذلك انه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار « الدستور » لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد ان تكفل الحزب بالاتفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لان الحزب كان يشترط ان ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » .. ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمان يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال .

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت اخالفه فيها ، وأرى انها تعمل لنفسها ، ويعمل لها الزمن اضعاف ما يعمله المنقطعون لها من دعواتها المخلصين وغير المخلصين .. فلم يحاول قط ان يفرض علي رأيا في قضية من قضاياها بغير الاقناع أو السكوت ..

وكانت صحيفة « الدستور » لسانا ثانيا للحزب الوطني بعد « اللواء ». وكان موقف الحزب الوطني معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنني كنت أويد سعدا وأرد على ناقيه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبتة في هذا الموضوع ..

وكان من غلواء الاستاذ وجدي في محاربة الاختلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على انشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذقة تغري بالسخرية حتى في تلك الاونة .. ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل في الغرب الحديث أو القديم ، فكان اذا لمح مني بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد في حدته على أن يقول : « لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته .. فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير ! »

الغاضبون !

وأعتقد ان اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزانا لنزاهة هذا الرجل ولحرите الفكرية والدستورية ، يغني عن كثير من الموازين ..

وماذا في « اسم » على رأي شكسبير أيضا ؟ .. فيه كثير وكثير ، ولا سيما في العصر الذي منيت فيه الصحيفة باسم الدستور ..

كان اسم « الدستور » يفضب قصر « يلدز » ويفضب قصر عابدين ، ويفضب « قصر الدوبارة » ..

وكان الحزب الوطني يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة اليه ، لانه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا

الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد .
ويراجع القارىء اليوم صحيفة « اللواء » فيرى انها كتبت عن
المطالبين بالدستور في تركيا ، قبل اعلانه هناك بيوم واحد ،
فقالوا انهم قوم يسبحون في الخيال ..

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما أراد
بالتحريض عليه احراج الانجليز والحد من سلطة المنسوبة
البريطاني والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الاصغاء الى هذا
الطلب كلما تاب الى شيء من الوفاق بينه وبين المحتلين .. ولهذا
كان حزب القصر يسمى نفسه « حزب الاصلاح على المبادئ
الدستورية » .. ولا يخفي الفارق بين الدستور واصلاح
الدواوين على مبادئ الدستور !

وكان حزب « الامة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم
المطلق للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ،
وكان ينادي بالاستقلال التام فيهدده « المؤيد » بحكم القانون لان
السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الامة على مناداته
بحصر الحقوق كلها في الامة لم يخل من اقطاب مخلصين كانوا
يحسبون الطفرة في الحكم النيابي خطرا حقيقيا بالحد
والاجتناب .

فاذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا مسند له من اصحاب
العروش ، ولا من جمهرة الاحزاب ، فاختر كلمة « الدستور »
دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة ، فهو اسم يدل على كثير
وان غضب صاحبنا شكسبير ! ..

صحافة المتطوعين

في هذه الصحيفة بدأت عملي الاول ، فماذا كان عملي

الاول هذا ؟ او بماذا نسميه في « تقاسيم » الصحافة الاخيرة ؟
لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة انني كنت
نصف هيئة التحرير برمتها ، اذ لم يكن في قلم التحرير غير
كاتبين اثنين ، احدهما انا والاخر صاحب الصحيفة !
ولا نبخس في هذا المقام فضل « التطوع » في تحرير صحيفة
الدمستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة .. فقد
كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت اشهر
الفصول على الاطلاق في ذلك العهد فصولا كتبها المحررون
المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين
على مكاتبهم في دور الصحف المحدودة ، وهم معدودون على
الاصابع .

ولقد كان نصيب «الدمستور» من التطوع أوفى نصيب ، اذ
كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة
الفرنسية وحده ، ويكتب الى جانبها التعليقات وحواشي الاخبار
والمترقات ..

كان الاستاذ « احمد وجدي » شقيق الامتاذ فريد صاحب
الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله
شابا المعى الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن مجتهدا في كل
عمل تولاه ، وقد تولى عملا قليلا في الصحافة ثم تولى عمله في
المحاماة أمام محكمتي الزقازيق والمنصورة ، فاشتهر في الاقليمين
أيما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على
البراعة والبلاغة ، ولو امهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر
اسما أشهر من اسمه في عالم المحاماة .

وكان زملاء « الامتاذ احمد وجدي » يتطوعون معه بالكتابة
والترجمة من حين الى حين ، ولكنهم أضربوا جميعا - أو كادوا -
بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل .. وكان

فحوى هذا الخلاف ان صاحب الدستور اعترض في مجلس ادارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال ان هذا الاختصاص ربما اعطاها الصفة « الاستثنائية » التي تدعيها في مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ اذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها الى اكثر من دولة واحدة ، فأعرض مصطفى كامل عن اقتراحه واعرض معه اكثر الاعضاء ، وكتب فريد وجدي خلاصة المناقشة في الدستور فحسبه المؤيدون الآليون متشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض اولئك الطلبة «النجباء» الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

الا اننا - نحن هيئة التحرير - المؤلفة من صاحب الصحيفة ومني ، كنا نعمل في التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والابخار .. وكان الاستاذ وجدي قليلا ما يبرح داره ، فكنت انوب عنه في اعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الاخبار وعلى الاحاديث ، وبينها اول حديث للوزراء المصريين ..

والابخار لم يكن خطبها في ذلك العهد بالامر العسير .. كان لها مكتب يديوان الداخلية ترسل اليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الاموال في المشروعات العامة .. ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين الى استطلاع النيات والتقاط الاسرار ، فان السيامسة الكبرى كانت في علم المندوب البريطاني ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لاحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الاوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من اسرار السيامسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من اخبار الميزانية قبل اوانه .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء .. الا أن طائفة من المخبرين كانت تساوم « الادارة » على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها انها تحصل على اخبر النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » بي سلال المكاتب المهملة، وظلت هذه الحيلة تروح عند بعض المحقق الى ما بعد ايام الثورة في اعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعيني واحدا من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمع متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك انه قد جاء بالخبر المضمون به على غير المجتهد الاريب .



كنت اذهب الى مكتب الاخبار الصحفية بديوان الوزارة فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبي الصحف العربية ..

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه السامعون اذا ذكر ، ولكن القارئ قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقدير اذا علم انني كنت في نظرهم جميعا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت احدهم يتكلم عن «عمر منصور» مندوب المؤيد، و «عبد المؤمن الحكيم» مندوب الاهرام، و «منامي قصيري» مندوب المقطم ، و «جورج طنوس» مندوب الوطن .. فاذا هو يشيعني بالاشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لانه قضى عليه بالعمل في الصحافة مع أمثالي :

« يحرق دين ها » البريس « Press .. ما عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها .. »

الصحافة قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل في داخل الصحافة المصرية ، أمكنني أن أُلخص حياتها عند أوائل القرن العشرين في كلمة واحدة :
تلفيق ! ..

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا ان توجد صحيفة واحدة، وان تعيش - اذا وجدت - أكثر من بضعة شهور . كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثمان النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات .. وكانت هذه الموارد لا تكفي كل الكفاية للانفاق على الصحيفة الى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم في ومادئها ومواعيدها .

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من موارد آخر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ، وهو كذلك مورد مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الاحوال ، ونعني به مورد « الاعانات » السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والامراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات .

فالاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة - كانت من الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقيام الى موارد الصحف في العصر الحاضر لان الصحف في العصر الحاضر تعتمد على البيع في الاقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات، ولم تكن وسائل البيع في الاقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الاسبوعية او الشهرية الى زمن قريب ..

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت في الواقع مولوده بموانعها وعثراتها ، أن صح هذا التعبير ..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا في الصحف اليومية لانها مظهر من مظاهر الواجهة و « الاهمية » في القرية أو البلده الصغيرة .. ولم يكن بالقليل بين مظاهر الواجهة اليومية ان يحضر مساعي البريد الى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادي بصوت يشبه صوت المنادي باسم « المحكمة » في ساحة القضاء :

« بوسطة » ! ..

فاذا بالحي كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بأنباء الارض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلطيرا » وملك « الفرنسا » أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالامطورة الطريفة التي تسمى بالترنسفال .. وبينها وبين السودان في الجنوب الوف الاميال ، ويا له من « واقع » وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفي يبخل بثمن هذا المظهر ، أو يماطل الصحيفة بقيمة الاشتراك حبا للمطال .. ولكنه يوجد به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ،

وأين هذا الذي يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامانة والوفاء ؟ ..

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة وأخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل « فلان » الذي ألقي توكيله واصبح غير معتمد في تحصيل الاشتراكات . وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك إعلانا موجها الى وكيلها في هذا الاقليم أو ذاك تنبهه الى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والانذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغني الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلّة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة او المدرّبين عليها في معاملة الصحف والمشاركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفي » على التعميم ..

« حق » الصحيفة

وكانت للوكيل فنون في معاملة الموظفين واغرائهم بالشئ أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد .. ولا غنى له عن هذه الفنون لانه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير في تحصيل « حق » الصحيفة و « حقه » هو في سوقه السوداء .. من وراء الستار ..

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حيلة في قبول الوكيل على علاته ، لان معاملات الصحف لم تكن في ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذي يسمح « بتكوين » طائفة من الاعوان المدرّبين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فانما ينجح بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنذكر أن الوكيل - على عيبه هذا - لا يستطيع أن يعمل في بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها .. فلا يد له من موطن في اقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم المحدود لأكثر من مئتي مشترك على أكبر تقدير ..

وكم يصل من هذا المحصول الى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء ؟

قليل .. جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها ان تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتغضي عما تعلمه من عيوبه ومحظوراته ..

عدة الشغل

ومنها - بل في مقدمتها - ان تنشر الصحيفة كل ما يصل اليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه في الواقع ، لانها « عدة الشغل » التي يعمل بها ، ولا عمل له بغيرها ، بين الاعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات - وتحصيل غيرها في السوق السوداء - فلا أمل له في محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف واغراء ، ولا ضير بالتخويف والاغراء في سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية .. ولكنه الضير كل الضير على الوكيل « الاريب » الذي يستطيع ان يجمع المئات من لدعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما دون العشرات

وأحسب - بعد هذا كله - ان التفاؤل فريضة على الناس يضطروهم اليها الصديق الواقع ان لم يضطروهم اليها شعورهم بالحاجة الى الامل والعزاء ..

ان الامور لا تقاس بأسوأ الظروف في جميع الاوقات ،
فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن في
الحسبان ، ولقد رأينا في ذلك العهد أناسا عملوا في وكالة الصحف
يدينون انفسهم بنزاهة القاضي وأمانة الطبيب ، ويشغلون
بهذه الصناعة لانها « هواية » تملأ الفراغ بالرحلات والمقابلات
في غير عنت ولا اضطراب ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذي يبعث
فينا التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط ..
أما القاعدة المطردة يومئذ ، فقد كانت صفحة من صفحات
الصحافة الحالكة في تطورها الاخير .. وكانت «تصنيفة» الوكلاء
الصحفيين في القرن العشرين تدل على المورد الذي تتسرب منه
اشتراكات الاقاليم ، فهي « تصنيفة » يتلاقى فيها الكاتب
العمومي المتجول ، وقارئ الاعراس والمآثم ، ومآذون الشرع
المفصول : وصاحب الصناعات التي لا تحصى .. لانه « متشرد »
عام يشتغل بجميع الصناعات !

التوزيع

أما التوزيع بأيدي الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية
أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب التحصيل ، ولكنه
لو اجتمع برمت من جميع الصحف الكبرى التي كانت تصدر
في القاهرة قبل خمسين سنة ، لما كان فيه الكفاية لاصدار صحيفة
يومية واحدة في هذه الايام .

وكان اربعة أخماس النسخ المعدة للبيع توزع في القاهرة
وضواحيها .. ولولا ان الامكندرية كانت مستعدة بموزعيها
المشتغلين ببيع الصحف الاجنبية لما تآتى تدبير مسألة التوزيع
فيها ..

ومن المناظر المألوفة اليوم في عواصم القطر أن يرى المارة
للصحيفة اليومية اربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها
لحمل عشرات الالوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط
الاسكندرية أو بور سعيد أو الاقاليم الوسطى في الوجه البحري
أو أقاليم الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن في القطر المصري سيارة واحدة
من هذا القبيل ، ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها
في حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة ..

المعلم عكريشة

وكان المعلم عكريشة يجلس الى ناحية المكتب وفي يده
الجوزة التي لا تفارقه ، وأذناه الى الكاتب الذي يسأل ،
« أولا فأول » ، عن عدد الوارد من كل صحيفة ، الى ان يتم
الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأ عملية التفريق على
المساعدين من المتعهدين ، فأنصاف المتعهدين ، فالباعة
المتفرقين ..

ولا يكلفك الامر اكثر من جولة سريعة بالنظر في هذه
الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى في
ذلك النهار : المؤيد ، واللواء ، والاهرام ، والمقطم ،
والوطن ، ومصر ، والظاهر ، والراي ، الجوائب المصرية ،
والمحروسة ، في بعض الاحايين ..

وكانت هذه الصحف تصدر معا في وقت واحد بين الساعة
الثانية والساعة الثالثة في المساء ، ويحملها عمال عكريشة أو
عمال الصحف من مطابعها الى الزاوية المعروفة ، فلا تلبث

« عملية » النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حملتها ..

وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج الى مكان للتوزيع أوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء ..

ولم تكن « زاوية عكريشة » هذه مكتبا ولا شبه مكتب ، ولكنها كانت منضدة من مناظيد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم «عكريشة» متعهد ببيع الصحف جميعها يستعيرها في مبدأ الامر من كاتبها الذي كان يستغني عنها بعد الظهر – اي بعد الفراغ من كتابة المعرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد – ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة ، لاتساع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعد قيام الاحزاب السياسية ، على اثر قضية دنشواي ..

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضدته وقلمه الذي يحمله وراء أذنه ، الى أن يودعه مكانه في الدواة النحاسية الصفراء .. ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان في القاهرة خلوا من صبي من صبيان المعلم الكبير ، تكاد تحسبهم أمرع من الترام لانهم يصلون حيث لا يصل الترام ، وتكاد تختلط اصواتهم بأصوات بائعي الخضر والفاكهة ، ومنها النداء على « الوطن ومصر العال ! » ..

وليس امامي احصاء دقيق لتوزيع الصحف في تلك الايام ، ولكنه على الحد الاقصى لا يزيد على خمسة الاف للصحيفة الواحدة ، لانه الحد الاقصى الذي تبلغه طاقة المكثات الطباعية ، قبل وصول مكثات البخار والكهرباء ! ..

الاعلانات

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع ان تسقط الاعلانات من حسابها ثم تطمع في البقاء واستيفاء ابواب الاخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الامس كانت تستطيع بلا ترده ان تسقط اعلاناتها من عددها الاول ثم لا تفقد شيئا يعوقها امسبوعا عن الصدور ..

وكانت التقاليد الموروثة - والامية معا - عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان » الصحفي الى سنوات قليلة مضت .. لعلها هي السنوات التي ظهرت فيها اول شركة للاعلان الصحفي في هذه البلاد ..

كان من التقاليد الموروثة أن يشتري الانسان لوازمه « المهمة » من حيث اشتراها أبوه وجده .

وكان الريفي ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، او لوازم البناء والاثاث ، فيذهب الى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مدكور والماوردي والجمال الحمصاني ومخازن الحدائد والاششاب في ناحية القلعة ومسوق السلاح ، ولا نظن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر اعلانا واحدا ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان ..

اما المتاجر الصغيرة التي تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة في احيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب ...

ولهذا بقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهي مقصورة على اعلانات البيوع القضائية واعلانات الوفيات او اعلانات

« ختمي فقد مني وليست علي ديون ولم أوقع على مستندات أو كمبيالات .. »

واعلانات « الاختام » وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات .. لانها عنوان للامية التي تعجز عن كتابة الاسماء . ومع هذه الامية ، لا اعلان ، ولا قراء للاعلان ! ..

الاعلانات السرية

ونحن الان نكتب ونقدر ونتذكر ولا نرجع الى الصحف التي عاشت في مصر وانطوت بعد حين .. ولكننا لا نجازف اذا قلنا أن مصاريها كانت على التحقيق اكبر من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والاشتراك والاعلان .. ولولا أنها اعتمدت في وقت من الاوقات على مورد الاعانات « السرية » لما طال بها الاجل شهورا ، فضلا عن سنوات ..

وقد تعلم مبلغ الحاجة الى هذه الاعانة اذا علمت ان شركات البرق-كشركة روتر ، وهافامس-كانت تتلقى اعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وان مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال - علانية - الى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الاميرية .

ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وان لم تبلغ من الصراحة في زمن من الازمان مبلغ الاعتراف المكتوب

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها الى مصدرين اثنين على شيء من الدوام والانتظام .. وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر « يلدز » في الامتانة

كان مصدر القسط الاوفر من اعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين ..

وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الذي يناقسه يوما ويعمل معه يدا بيد في عامة الايام .. وكان يخل عباس المشهور يغل يده عن التبرع بالمال من خزائنه الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الاوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين ..

أسعار الرتب

وكانت للرتب أسعار مقررة من الباشوية الى البيكوية من الدرجة الثالثة .

فكانت رتبة الميرامون الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الاولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه او ثلثمائة جنيه ، وتقدر أسعار النياشين والاوزمة بمقدار قيمتها من المعدن والجواهر وقيمتها من الاولى في ترتيب التشريعات .

ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات ، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل .. ولكنها لم تهبط في السوق - على ما نعلم - الى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والاسكندرية .. ولو ان ممسارا من مسامرتها خانه الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة ، لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة الى ختام عهد الخديويين ..

والوكالة البريطانية ومفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندين كفاين - أو أكثر من كفاين - لقصور الملوك والامراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافىء خدامها بالمنافع الجزيلة

من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات « الميزانية » ومن مصروفاتها هي اذا اقتضى الحال .. ولا تقصر السفارة الفرنسية عن زميلتها في بذل هذه الاعانات على اختلافها ، ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه . .

ومن الوظائف التي كانت تبدو للنظر - بريئة - من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة - باتفاق العرف - على علماء الالمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفه في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الاقلام أمرا لا غبار عليه ، لانهم كانوا يقصدون الى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الاوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة او مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ ..

ونعود الى الدستور

ونعود الى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو ان تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟

نقول اليوم ان ظهورها بومسائلها التي عهدناها، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب . وخلاصة ما يقال عنها ان قلة مصروفاتها كانت هي السند الاكبر لبقائها المزعزع في عمرها القصير .

ضاع الامل في الاشتراكات بعد شهر او شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة - على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الاعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالاذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الاذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فقصرت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع الى أسبوع .. ومن لطائف الامتاز فريد وجدي - وكان يمزح أحيانا ولا يقول الا صدقا - ان موظف الادارة فاتحه في نقص اجور الاعلان فقال له متمللا : ألا تحمد الله لاننا لا نغرم حتى الان اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور ؟!

أما الاعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الامتاز فريد وجدي رحمه الله كان يحسب انه يسخر أصحاب الدعايات لرسائله الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية .. وقد يصل الامر الى تبرعات الافراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة .. وحدث من ذلك ان السيد «توفيق البكري» أراد ان يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل الى الامتاز وجدي مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالا بقيمة الاشتراك ، ويعيد اليه بقية مبلغه مع الايصال ..

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة ، ولولا قلة
المصروفات – كما أسلفنا – لاتصلت النتيجة بالمقدمة في أيام ،
أو على الاكثر في أسابيع !

سنة جنيهاً

كانت المصروفات القليلة سبباً من اسباب بقاء الصحف
المصرية في سنواتها الاولى ..

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية
الكبرى ، فقد كان قلم التحرير في أكبر الصحف لا يزيد على
خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الاخبار من
الاقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهاً في الشهر ويندر جداً
ان يجاوز العشرين ..

وكان قلم التحرير في صحيفة الدستور يشتمل على محرر
واحد غير صاحب الصحيفة ..

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك في
التحرير والترجمة وتلخيص الاخبار ، ويتناول في الشهر مرتباً
لا يقنع به الآن احد يعمل في الصحف من البوابة الى السعاية
ونقل الاوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب
الاخبار ..

ذلك المرتب « مبلغ وقدره » متة جنيهاً ، ولم يكن يزيد
على مرتبي من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد .. فلم تكن
زيادة المرتب احدى المغريات لي على ترك الوظائف الحكومية
للاشتغال بالصحافة ، لان المرتبين متقاربين مع الفارق في الضمان
والترقية ومستقبل المعاش ..

الا أن القيمة في هذه المرتبات لا تحسب بحساب الارقام ، فان

السته ربما ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليمات في ذلك الحين تعطيك مائدة افطار حسنة في الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة في طعام الغداء أو العشاء ..

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوي وزن الرغيف في منتصف القرن العشرين ..
ومليمان ثمن الفول والزيت .
ومليم ثمن صفحة من السلطة .
ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو اصبع موز أو أربع بلحات ..

فان اردت التنوع امكنك ان تغير هذه الاصناف بالحلاوة الطحينية او العسل والطحينة او الجبن او البيض ، ومن هذه الاصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات ! ..

ولك ان تتوسع في طعام الغداء ، فلا تقنع بالاصناف التي تقدم على مائدة الافطار .. ولكنك لا تحتاج الى اكثر من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة مليمات للصفحة من الارز ، وعشرين مليما للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن .

وقس على ذلك سائر المأكولات ..

دروس التلغراف

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام .. فكنت انا من سكان الضواحي الخلوية ، لا يكلفني السكن في الشهر اكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على

الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختياري على الضاحية التي سكنتها – بجوار حدائق القبة – لانني كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكنني كنت اتعلم دروس التلفزيون بمدرسته في ضاحية الدمرداش ، فاخترت السكن الى جوارها وضمنت اجور المواصلات باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت اجور المواصلات ، ولم اعوضها بتذاكر الاشتراك في الترام أو قطار كبري الليمون .. اذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ صحيفتنا « الحنبلية » .. فعوضتها بخمسة مليمات في الترام ، أو بمشوار على الاقدام ، وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل ان اسمع باسمهم بين الفلاسفة الاقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين أسوان وأبي الريش، فلماذا أعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟ .. لا موجب لهذا العجز على التحقيق ، وبخاصة بعد العلم بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد ترشيحي بهذه الصفة للتلمذة على استاذ الاساتذة ومعلم المعلمين : ميدنا ارمطو كما كان يقول استاذ الجيل « احمد لطفي السيد » .

ديوان زهير .. بقرش

هذه ضرورات المعيشة المادية ، فما القول في ضروراتها النفسية او الادبية ؟
لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شؤوني الخاصة ..
ولعلها أيسر من ذلك في شؤون الكثيرين ..
ففيما عدا شهود التمثيل مرة او مرتين عند عرض الروايات

الجديدة لم يكن لي مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والافرنجية .

فهل تراني اعجز عن « قرش صاغ » ثمننا لديوان البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمننا لديوان المتنبي؟ او قرشين ثمننا لكتاب المستطرف في كل فن مستظرف ، وعلى هامشه ، أو في ذيله ، كتابان آخران ؟ ..

واذا زادت الحسبة الى إجنهيات ، فهل تراني اعجز عن رحلة الى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أو للنقل منها « عند اللزوم » ؟ ..

أما الكتب الافرنجية فقد كانت لها طبعات يباع فيها الكتاب بشلن واحد ، وكانت هذه الطبقات تحيط بالنخبة المختاره من كتب المنظوم والمنثور ، وما يصعب الحصول عليه في طبعة منها لانها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا تعنى بغيره ، فليس من الصعب ان تحصل عليه في طبعة مثلها في الثمن وفي جودة الورق والتغليف .. وعلى هذا امكنني في خلال ستة اشهر ان اجمع مائتي كتاب من عيون كتب الادب الغربي في جميع اللغات، مترجمة الى اللغة الانجليزية ..

بارك الله في مصطلحات السيامسة وفوارق الاشكال والعناوين في العلاقات الدولية .

فما زلت من ذلك الحين أو من بأنها شيء صحيح ملموس الاثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا الفاظا تطير مع الهواء .. فالبلاذ المصرية كانت - في الواقع - تابعة للدولة البريطانية في سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية ..

ولكنها لم تكن كذلك في مصطلحات السيامسة ، ولا في اشكال العناوين ..

ولهذا استطعت ان اشترى كتابا يباع في انجلترا بثلاثة

جنيهاً ولا ابدل فيه اكثر من اربعين قرشاً في مكتبات القاهرة ،
لانه صادر من مطبعة المانية حصلت على حقوق طبع الكتب وبيعها
في كل مكان غير « الاملاك البريطانية » .
ولم تكن مصر قط من الاملاك البريطانية بحكم القانون ،
فليس في العرف الدولي ما يمنع المطبعة الالمانية ان ترسل الى
مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن
واحد على وجه التقريب .. فامتغينا بهذه الطبعة زمناً عن
الكتب الانجليزية في طبعاتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب
بعد مشكلة الغذاء .

ولم تبق الا مشكلة الكساء ! ..

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مرأى ! ..

لانهما تحتاج الى مبلغ متجمع لا يوجد في اليد ساعة الطلب ،
ولا تحلها عندي حيلة التقسيط لانه - على ندرته في ذلك الحين -
لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء ..
ومرة واحدة حلت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين ،
ولكن الجوار الصالح هداني الى حيلة اصلح من هذه الحيلة
لتدبير هذه المشكلة ، وهي درس خصوصي لتاجر أقمشة يتولى
تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفيني الاجر -
بذلك - كسوة كل ثلاثة أشهر .. ولم تزد مدة التعليم كله على
كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الاستاذ ! .. أو لرغبة
الفريقين معا في « فسخ » العقد بسلام !

خصلة مشتركة

واخال ، بعد هذه القصة عن الكفاية ، انني قد نسيت ان
اقول ان قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بيني وبين الصحافة

التي عملت فيها ، فقد كنت في سن الحاجة الى المصروفات قليل
الحاجة الى المصروفات ، وأصبح من ذلك ان اقول ان مطالبي في
حياتي ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذي يتوقف
على المال ..

وكفاية المرتب ، على أية حال ، مهمة جدا في كل عمل نعمله
لنعيش من رزقه .

هي شيء مهم جدا ولا كلام ..

ولكن هل ترانا نفهم انها هي الشيء المهم الوحيد ، او ان
شيئا آخر لا يهمنا مثلها على تفاوت المرتبات والاجور ؟ .

من يفهم ذلك ففي تجاربه نقص يتعبه في عمله ويتعبه في
معيشتة .. فالرغبة في العمل الذي تتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب
الذي نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهاً نتناولها من
عمل نرغب فيه ولا نستريح باثني عشر نتناولها من عمل نبغضه
ونساق اليه ولا نود ان ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملي في الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه ..

ووجدت من اللحظة الاولى انني اريد ان افرغ فيه جعبه
المعرفة التي حصلتها من مطالعاتي الصحفية ، ومن مطالعاتي في
الكتب ، وفي الحياة ..

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر
في الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر النظر
والسمع ..

« عم » العقاد !

كيف اوقع مقالتي الاولى ؟ وكيف يكون توقيمي الملتمزم في
جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التي كنت اقرأها في المجلات
الاجنبية ، فكان توقيعى باللقب وبالحرفين الاولين من الاسمين
« ع.م العقاد » .

ومثل هذ التوقيع لا ينجو من السنة الزملاء الهازلين في بلد
« القفش » والقافية .. فسرعان ما ظهر لي مقالان او ثلاثة حتى
دغموا الحرفين في اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات
« عم العقاد .. ! »

وماذا قال عمك ؟ .. وماذا تقول يا عم ؟ .. واكتب لنا يا
عمنا بما تراه .. وقس على ذلك بقية القافية في مختلف الاوضاع
والنداءات ..

ويأبى العناد ان ارجع عن « عم العقاد » ..
أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبيرا على السخرية بغير
مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشئ ان يذكر
وان يكون في توقيعه اغراء بذكره .. واما السخرية فهي شهرة
نابية في جميع الاسماع ، ولكنها تهون اذا اصاب الفطاحل
النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين ..
وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد
الاول الى آخر الاعداد !

اما الموضوع فقد كان « المقالة الادبية » في المرتبة الاولى
ثم تليه المقالة على الاجمال في مختلف الشؤون ..
وكان أدب المقالة في تلك الاونة يستوعب مطالعاتي الحديثة
أو يكاه ..

كنت أدمن القراءة في كارليل ، وماكولي ، وهازلت ، ولي هنت ،
وارنولد ، وغيرهم من ائمة فن المقالة في القرن التاسع
عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في الصحف اليومية ،
لأنها تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين أو اربعين صفحة ، وبعضها

مما يصلح للنشر في الصحافة الاسبوعية كما يصلح للنشر في الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت اترجم ما يصلح للنشر في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت اكتب ما اكتب عن ادباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق ..

فن المقالة !

ولم يخطر لي ان اخترع جديدا في فن المقالة الادبية ، اذ كانت الصحافة المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ انشائها قبل الثورة العراقية ، وكانت «الجريدة» قد سبقت «الدستور» في تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين «محمد السباعي» تلميذ «لي هنت» في فن المقالة على أسلوب المدرسة الانجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه قراء كتابه الذي سماه «بالصور» و اراد ان يعارض به مقالات الترمسيم والتخطيط المعروفة باسم «الاسكتش» Sketch في ادب الغرب الحديث ، فلم احاول في كتابة مقالاتي جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم اطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لانني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفي من المقالات ..

على انني أحمد الله ، لان المتقدمين علي في الصحافة لم يغلقوا علي جميع الابواب ، فبقي لي في الصحافة المصرية باب واحد استطيع ان اقول اني كنت أول السابقين اليه .. وذلك هو باب الاحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا اعلم ان احدا من الصحفيين المصريين سبقني الى اجراء حديث عام مع

وزير مصري أو رئيس شرقي يسمع له قول في السيامة ،
واخالهم معذورين بعض العذر في هذا التأخير ، واخالني محظوظا
بعض الحظ في هذا السبق المقدور ، لان الاحاديث امر مرهون
بأوانه لا يدركه أحد قبل مواعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول في
صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام
الاحزاب ..

من كان يحادث الوزراء المصريين في شؤون السيامة العامة ،
وماذا يقول الوزير للرأي العام اذا اراد المقال ؟ وأي برنامج
له يعرضه على الناس ؟ وأي رأي كان له بعد رأي المستشار
ورأي قيصر قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

احاديث الوزراء

ان حديثا يجري مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير
التوقيع والسكوت لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين
المصريين اذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لي ان
اقتحم هذا الباب لأول مرة ، فكان اقتحامي اياه في الحق عنوانا
لصفحة جديدة في تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق
افي الصحافة يتكرر كل يوم ..

وجرى الحديث الاول مع سعد زغلول في وزارة المعارف ،
وجرى غيره من الاحاديث مع الغازي أحمد مختار « قوميسير »
الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه في زمانه .. وكان على ضالة
نفوذه في مركزه شخصية من اقوى الشخصيات العسكرية
والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان ..

وكنت أعلم ان حديثا يتطرق الى نظام الجيش في عهد
الاحتلال ، ويفوه به اكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي

بالديار المصرية - لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين ..
ولقد كان ما قدرت ، فان الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال
لي لما سألته عن العدوان على المحمل المصري في جزيرة العرب : ان
الذنب ذنب النظام لا الامن في الجزيرة العربية ، وانه كان
يستطيع ان يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التي تحرس
المحمل في كل عام !

يا خير ! ..

ان كلمة دون هذه الكلمة في المسام بنظام الاحتلال
العسكري قد اوشكت ان تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد
حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على
الاعتذار ..

فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكري
يمثل الدولة العثمانية ؟ ..
الا انهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد
الكبير ازمة متواترة .. نصرهم فيها عليه مماسرة الخذلان في
الاستانة ، فكان الغازي مختار خاتم « القوميسيريين » في هذه
الديار ..

ثورة علي الخديو

اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات
الصحافة المصرية ، فهذه هي « أوليتي » التي خرجت بها من
اول عملي في صحيفة يومية : أول صحفي مصري حصل على
حديث من وزير عامل في الوزارة ، او من رئيس شرقي كبير
يسمع له رأي في السياسة ..
وقد كدت ان اضيف اليها « أولية » اخرى ذهبت غير

محسوس بها ، قبل ان تحبو من مهدها ..
كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى
سياسة الامير في شؤون مصر وفي شؤون الاصلاح الازهري على
التخصيص ..

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها ، وكان مدار هذه
السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية، سلطة الاحتلال، وبين
السلطة الشرعية سلطة الامير .. وقامت السياسة فعلا - بعد
عزل اللورد كرومر - على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي
تعنيه ، ومنها مسألة الازهر والاقواف ومسألة الرتب
والنياشين ..

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، وادار
ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة
الاصلاح في الازهر بعد وفاة الامتاز الامام ، واعلن عداؤه
لمدرسة القضاء الشرعي وكاد يقضي عليها ..

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الازهر وخارجه ،
فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهري واقسم انه يفار على
الاصلاح غيرة اصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه ..

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من
صحيفة « الاخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن
ويحررها الاستاذ توفيق حبيب . قلت فيه ما فحواه : ان الملوك لا
يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال !

براءة المشايخ !

وكان في وسعي ان اكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لان
صاحبها - الاستاذ فريد وجدي - كان كما أسلفت من ارحب

خلق الله صدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة ، ولكنني قدرت له حرিতে هذه فلم أشأ أن أخرجہ في مسألة ترتبط بالازهر والاصلاح الديني . وقد كانت له في العالم الاسلامي مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين ..

فلما ظهر المقال في صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الامواني) قلت له العاشية الخديوية ، وظنوا انه من ايحاء بعض المشايخ الازهرين .. فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الامين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار ومآلته عن اسم صاحب المقال ، فأذنت له ان يطلعهم عليه ، ولعلمهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفاقا من اثاره القضيية الازهرية في أطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين .

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة ، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها أصحاب العروش ويحاسب عليها اصحاب الاقلام .

يومية وغير يومية

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم الى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف اسبوعية بالمعنى الذي نفهمه من الصحافة التي تصدر مرة كل اسبوع .. فان لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التي يقال عنها انها اسبوعية قد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين ، أو تنتظم على الصدور يوما في كل اسبوع الى امد محدود ، ثم تنقطع دفعة واحدة ، أو تعود الى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور .. لانه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور ..

وربما انتظمت الصحيفة « الاسبوعية » خمسة أسابيع أو ستة أسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثا اذا انتظرتها في يوم معلوم من أيام الاسبوع ، فاذا ظهر هذا العدد منها يوم الاحد فلا مانع أن يظهر العدد التالي يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذي سبقه ، ولا معول في ميعاد من هذه المواعيد على شيء غير « توافر المادة اللازمة للتحصيل .. »

شيء لزوم الشيء

وما هي المادة اللازمة للتحصيل ؟ ..

حملة على مشهور أو فضيحة في امرة تخاف التشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة ميساسية ، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه الصحف « الاسبوعية » الذي يسرع الى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والامتداد .

وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل أحد من الصحفيين الافاضل او غير الافاضل ، انه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة او يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الاسماء فلا ترى بها من خفاء .. وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كامم « الكرباج »

أو « البعيع » أو « الجاموس » أو « اللجام » أو « الصاعقة »
أو « المرصاد » أو « العفريت » أو « عفريت المقاولين » على
التخصيص ؟ ..

هذا الى أسماء اخرى كالخلاعة والصبوة والغندرة والمرستان
والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم في
سعة من الاختيار ، وفي سعة من الادعاء كما يشاءون بما
اختاروه من كلمات ! ..

ولم يمض غير يسير حتى افرقت الكفايات اللازمة
لاصدار الصحيفة الاسبوعية على هذا المنوال ..
فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس
على التشهير والتهديد واستغلال الفضائح والاشاعات .
وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب مليم من هذه الصناعة
ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الاقاول والباطيل ..
ولا بد من الكفائتين لاصدار الصحيفة في موعدها الملائم
.. فان لم توجد الكفائتان في رجل واحد فقد توجدان في رجلين ،
وقد يهتدي أحدهما الى الاخر بحكم المصادفة ان لم يهتد اليه
بحكم الضرورة ..
وهكذا كان ..

بين العتبة والفجالة

فقد جدت في القاهرة ثلاثة مكاتب أو أربعة لتحرير المقالات
حسب الطلب والاقتراح ، مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب
الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحي الحسين ، وهي الاماكن
التي كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لانها
تكلف القليل من الاجور وتتقبل المقلقات ..

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة في العتبة الخضراء يجلس إليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والآخر للقدح والتهديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الأخيرة أن يدخل التعديل المطلوب في القياس والتفصيل ، ان كان لا بد من تعديل ! ..

كان المكتب العام من « مكاتب التحرير تحت الطلب » ، في قهوة على مفترق شارع محمد علي وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذي تعودت أن أتناول فيه الغداء الى جوار تلك القهوة .. فكنت أجلس فيها هنيئة قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين والادباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم ، وأستمع الى أحاديث غزواتهم وأحابلهم في تحصيل أتاواتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الاسبوعية في أيامها يجلس الى مائدة « الشيخ المحرر » ويبادره بطلب من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب في موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى في أحدهما على سري معروف من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي عابدين ، لانه يثابر على عمل البر واسداء المعونة الى الجماعات الخيرية واصلاح المساجد التي تجاوز قصره واطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم ، وينحى في المقال الثاني على ذلك السري بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يفر بالابرياء فيسوقونه الى مساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به من الادواء ! ..

ثمن الفخر والثناء

وخرجت من القهوة الى المطعم والمقالان يكتبان ، ولعلمهما عرضا في ساعة واحدة على السري المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين : ثمن الفخر والثناء و ثمن السلامة من الخزي والبذاء .

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة انها كانت في مجموعها على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع الى الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، وينقطع لها الحثالة من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال ..

ولنا أن نقول في كلمتين أنها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا أن نذكر اننا نتكلم عن الصحافة ، وأن الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن أعجل الاحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلا بد من استثناء في هذه الفترات ، بل لا بد من حكم متئد يقابل الحكم العاجل ويلغيه أو يكاد .. صناعة مرذولة محتقرة ..

هذا هو الرأي المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة .. ولكنك لا تستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر اذا التفت من ناحية الصحافة « غير اليومية » الى ناحية الصحافة اليومية ، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها أناسا أحق بالاحترام من علي يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفي السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعي الذي تقاس به الصناعات .

طبقة من المجاورين

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فان الرتب والالقب التي حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن ألقاب الوزراء ... ومن حصل منهم على « البيكوية » فانما كان يحصل عليها من الصنف الذي ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا أن الاستاذ « أحمد لطفي السيد » كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجهاته الرتبة التي أنعمت بها الدولة على صاحبي المؤيد واللواء ..

ومن الملاحظات التي لا تهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الاونة ، فانها تدل على احساس عميق داخل أصحاب هذه الصناعة أودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شئون يتغلب فيها العرف التليد على كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعي » الذي كان يحسه الزعيم النابه في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب « الاميرة شويكار » ولا خطر لعلي يوسف أن يتزوج بسليمة بيت السادات ، وهو طموح أبعد من الطموح الى مصاهرة بيت الامارة ، لان اعتداد بيت السادات بشرقه الديني كان في ذلك العهد أقوى من اعتداد الامراء بمراتبهم الدنيوية .

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي الى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فان مصطفى كامل كان من طبقة الموظفين الصغار ، وعلي يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الازهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد ان بلغا في الصحافة قمة النجاح ..

من الكلمات التي قرأتها ولم أنسها منذ قرأتها كلمة
الروائي العبقرى « شارلز ديكنز » في مقدمة قصة المدينتين
حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« انه كان أحسن الازمان وكان أمواً الازمان .. كان عهد
اليقين والايامن وكان عهد الحيرة والشكوك . كان أوان النور
وكان أوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط .
بين أيدينا كل شيء وليس في أيدينا أي شيء . وسبيلنا جميعا
الى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا الى قرار الجحيم .. تلك أيام
كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على
علاتها ، وألا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من
طيبات ومن آفات » ..

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قرأتها أنها لعبة من
العباب المجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الازمان ولا على
حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها أعيدها أو تعيدني الى
ذكرها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لأنها
وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل
جديد .. ومنها فترة اليقظة المصرية في أوائل هذا القرن
العشرين .

حائر بين الاثنين

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة
اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التي لم يكن لها
حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة أن نعلم أن « الفترات الخالقة »

بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفيها ، الى النجاح
أو الى الاخفاق ..

ولكنني أحسب أن الصحافة في أوائل هذا القرن قد أصبحت
« هامة » ولم تصبح « عامة » الا بعد حين ..

وهذا فيما أحسب هو علة التناقض بين صحافة يومية
محترمة – بمقاييس المجتمع – وصحافة أخرى غير محترمة بكل
مقياس من هذه المقاييس ..

فالصحافة اذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة الاجتماعية
التي تعرف لها أهميتها وتحذر من اهمالها ، وهذه القوة
الاجتماعية تأتي من قمة المجتمع ومركز القيادة فيه ..

وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « رأي عام »
يسندها ويراقبها ويتعهدا ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية
والرعاية ..

ولم يكن لهذا « الرأي العام » وجود في أوائل القرن
العشرين ، ولم تكن الصحيفة الاسبوعية قد بلغت من القوة أن
تؤدي الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها
قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقي عواقب الاهمال فيه ..
كانت الصحيفة اليومية توجد لانها لازمة مهمة في اعتبار
طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

أما الصحيفة الاسبوعية فانما كانت توجد لانها لازمة
لصاحبها ومن يعمل فيها ، فان لم يتكلفوا بتدبير أمرها فما من
أحد غيرهم يتكفل بتدبيره ..

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة – يومية وغير يومية
– عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة

خاصة يقصدها الصحفيون لانهم صحفيون، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمي الكاتب في الصحيفة بالتحريجي ، أو الجورنالجي ، أو الغازيتجي ، أو المحرر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل.. فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحفي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسؤول .
صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » اذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

في « سبلندد بار »

فقد ترى في « سبلندد بار » أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لانهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وانما يقصدونه لانه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العثمانية ..

وقد ترى أناسا اخرين في قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدز ، أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحسي الحسيني ، وباب الخلق ، والفجالة .. ولكنك لا تراهم هناك لانهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وانما تراهم حيث كانوا لانهم يدخنون الشيشة أو يشجعون القهوات المصرية في أول عهدها بمنافسة القهوات الاجنبية ، أو لانهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، أو لانهم تناقلوا سنة الجلوس في هذا الحي أو ذاك

من أيام الطليعة الاولى بين الادباء رواد الاندية العامة ..
وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، أو البيئات
القلمية ، تتحقق من أمر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك
البيئة بالحركات العامة في الشرق كله .. فلم تعرف حركة عامة
في قطر من أقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين ..
هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب
الاشتراكية أو تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس جماعة « تركيا
الفتاة » أو صاحب الصحيفة الايرانية الحرة ، أو مؤلف كتاب
طبائع الاستبداد ، أو عصابة الحملة على فتوى الترنسفال .
وهناك رأينا ابراهيم ناصف الورداني بهياجه الدائم ولهفته
الدائمة على أطباق الارز واللبن ، ورأينا مصطفى الصفيير
الداعية الاسلامي الهندي الذي جازت حيلته في مصر واعتقله
الكماليون في الامتانة فحكموا عليه بالاعدام و نفذوا الحكم على
الرغم من احتجاج الدولة البريطانية ..

وهناك كنا نلقى من نلقاهم من الادباء الذين لا يشتغلون
بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة الصبح
والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد أو
مصادفة .

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة ..

صناعة بغير عنوان

صناعة بغير عنوان أو عنوان بغير جهة .. ومن هذا التيه
بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق أو من « التوزع »
والبعثرة بين مختلف الشواغل والهموم ..
الا أننا نبريء الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات

فנסأل : أكانت الصحافة حقاً عارضا غريبا كل الغربية في المجتمعات المصرية والشرقية ؟ أيمن أن توجد صناعة في مجتمع من المجتمعات دون ان تسبقها صناعة متشابهة لها قائمة على أساسها ؟ ..

أكد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلا بد من صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولا بد من صحفيين قبل الصحفيين ..

وللصحفي في المجتمع المصري أب أو جد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الاب أو هذا الجد الذي ننتمي اليه أجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟ .

هو « اللبيب » على أحسنه وأعلاه ، وعلى أسوأه وأدناه .. واللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصفي اليه المتعلم المستفيد كما يصفي اليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .. واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثرة » أو « الادباتي » الذي يفهم بالاشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في مسيله من الزراية والابتدال ..

اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوأه وأدناه وعلى أحسنه وأعلاه .

أزمة قلم

تعطيل « الدستور »

بقيت في تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الاخيرة في عدده الاخير ..
وقد مضت علينا قبل احتجابه أشهر ونحن نعلم اننا نكتب أعداده الاخيرة ، وان كنا لا نعلم أيها يكون الاخير الذي ليس بعده أخير ..

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة أن يمطل أحدا من أصحاب الديون عليها أو أصحاب الاجور فيها بدرهم واحد ..
فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على أن يشتري مؤلفاته جملة واحدة مدادا لثمن الورق وما اليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على أن يشتري التسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، وأذكر أن ثمن النسخة من معجم « كنز العلوم واللغة » لم يزد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين ..

ولقيت الرجل مودعا فقال لي انه يرجو ان نتعاون معا في عمل صحفي نحن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السيامية ، وانه يدرس الفكرة ويلخصها لي عسى أن افكر

فيها ، ويرجو أن يبلغني نتيجة درسه لها بعد اسبوعين أو شهر
على الأكثر ، اذا صح العزم على الشروع في تنفيذها ..

مقالاتي مرتين ! ..

كان الامتاز فريد وجدي يصدر مجلة شهرية تسمى
« الحياة » ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ،
ثم تفرغ لاصدار الدستور وترك المجلة الا في فترات متباعدة
يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الادبية ما يملأ عددا
من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتي التي
كنت أنشرها في الصحيفة اليومية ..

أما « الوجديات » فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات
ويديرها على المواعظ الاجتماعية ، وتقريب المثل العليا التي
تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الاخلاق المثالية ،
وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيابتها وقد تصدر
منها طبعتان وثلاث طبعات .

قال الامتاز : « ان الحياة » أولى بمقالاتك من الصحيفة
اليومية ، وانك تستطيع أن تجرب قلمك في المقامات فتظهر
« الحياة » وفيها مقاماتك ومقالاتك الى جانب « الوجديات » ، ولولا
أنني أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن
عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد
أسابيع ..

.. بلا عمل

ومضت الاسابيع ولم أسمع من الامتاز خيرا عن هذه

الفكرة ، ولم أصل من دراستها بيني وبين نفسي الى نتيجة تدعو الى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لي في الصحافة أو ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل الذي يتيسر لي عند طلبه على عجل ، ولا بد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة في تلك الاونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لان البلاء الذي كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان « اللواء » في حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الامل في موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفي موارد عابدين بعد اعراض الخديو عباس عن الحزب الوطني في عهد سيامة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد » .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسة ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الامر على هجرة الديار ..

وكان « المؤيد » يزدهر في ابان نشاط صاحبه « علي يوسف » .. ثم نكب هذا الرجل العصامي نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل أوامه ، اذ فجعت المنية في وحيدة في مقتبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الاسرة أو مشكلات « مشيخة السادات » التي ساقته قضية الزوجية اليها ، وما زال ديبب الملل يسري اليه ويزهده في صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقادير وهو لا يبالي ما سوف تلقاه ، أو ما سيلقاه ! ..

وكانت « الجريدة » أملم الصحف من هذه الزعازع
واشباهاها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها
السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب الاصلاح
على المبادئ الدستورية .. فان حاشية الخديو افتتحت عهد
الوقاق بين السلطتين الشرعية والفعلية بمحاربة « حزب الامة »
قبل غيره من الاحزاب ، لان أعضاء الاحزاب الاخرى كانوا
يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه ، خلافا لأعضاء حزب الامة الذين
كانوا يقفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه
في كثير من الاحوال . فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل
الأعضاء من حزب الامة الى حزب الاصلاح ، ونجح مسعاهم بعد
اختيار وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب
والالقباب على أعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة
على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم
الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية ، وعرفت من
محرريها يومئذ من تركها لانها اضطرت الى القصد في وظائف
التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها ، حتى كانت تقنع من
المحرر بنهر في اليوم ، ولا تسأله اذا ونى عن كتابة هذا النهر
عدة أيام ..

حياة الظلام

وتلك هي الصحف التي أنظر اليها اذا نظرت الى عمل فسي
الصحافة اليومية ، فأما الصحف الاسبوعية فلم يكن فيها مجال
لتغير أصحابها أو لتغير كتاب المقالات - بالقطعة - على حسب
الطلب ، وعلى كل لون ، وفي عرض الطريق ! ..
وربما تأتي للصحافة في مجموعها أن تغالب هذه المحنة ،

وأن تتغلب عليها في النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب: قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الاقوال والنيات ! ..

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في أيام الثورة العراقية ، ثم بطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن في البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شيء قاله في حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود في الحكومة أو في البلاد .. ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرتها على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة ، وانها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به « السلطة » من معاذير ، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال في خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا نستثنى من ذلك « مصطفى كامل » على تطرفه واندفاعه في الخطب ، وفي المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت الى الاقلام التي لا تحسن شيئا كما تحسن ان تسقط معاذيرها وان تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها ، ولا نخال أن حاكما حرا أو مستبدا كان يعيبه ان يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة الى القتل واهدار الدماء . ومن أمثلتها ما نشر في ديوان « وطنيتي » من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سال في مصر الدم
أم هل افاق النوم

ومضوا الى أهل الضلا

ل فأعدموا من أعدموا

فانه لمن مخافة القائل أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح
بنشر هذا التحريض . فان لم تكن مستبدة فمن السخف أن
يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه .. فما كانت حكومة
حرة أو مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم .

حفرت قبرها بيدها !

وكانما كانت الصحافة الامبوعية والصحافة اليومية في
مباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التي تعمل على تقييدها
والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الامبوعيين في ذلك
الحين يستبيحون كل محظورة في التشهير واستغلال الفضائح
وافتراء الاكاذيب لاغتصاب الاتاوات التي لا موعدها ولا حدود
لتكرارها باسم « الاشتراكات » أو التبرعات الوطنية . ويشاء
لها سوء حظها وحظ الامة أن يكون ممثلو البلاد أكبر أهدافها
وأول من يصاب بسهامها ، فكان التشهير بأعضاء مجلس
الشورى يا يا ثابتا من أبواب كل صحيفة امبوعية تبحث عن
الفريسة بين ذوي الاسماء المعروفة ، ولم يكن لأعضاء مجلس
الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه أو يناقشون فيه ،
وانما كانوا من أعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على
مقربة من جمهرة الصحفيين الامبوعيين فكادوا أن ينوبوا عن
البلاد جميعا في مصابها بالصحافة الامبوعية وتصدي بعضهم
للمطالبة بتقييد الاقلام قبل أن يتصدى لها الوزراء والحكام .
قال أحدهم للامير حسين كامل مستثيرا لنخوته : هل

يرضيك يا صاحب السمو أن يقال عنك انك رئيس مجلس
الشورى ؟ ..

وعلى هذا النحو تبثلى البلاد بالنكسة وقلب الحال ، وينادى
بالحجر على حرية الصحف من كانوا أحق الناس بالغيرة على
حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس ..

في القائمة السوداء !

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من أبنائها
العاملين فيها ومن أعدائها الساخطين عليها ..
وطالت حيرتي بين العمل فيها والعمل في غيرها ، واين
يكون العمل في غيرها ؟

انه التدريس ولا شيء غيره .. فان لم يتيسر في المدارس
الاهلية فقد يتيسر باعطاء الدروس الخصوصية ، وأما وظيفة
الحكومة فهيات الان « هياتين » لا هيات واحدة .. لانني كنت
قبل اشتغالي بالصحافة اتنحى عن وظيفة الحكومة لنفوري منها
.. فالان أطلبها - ان طلبتها - ولا أظفر برضاها ، بعد ان ثبت
اسمي في سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد ان
صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الامباب ..
ولا بد من عمل عاجل على أية حال ، لان تكاليف المعيشة
على الشباب الذي لا يكسب رزقه من وظيفة ، ولا من مورد يملكه ،
ضرورة ملحة لا تحتمل الارزاء من يوم الى يوم .. ولا نقول من
اسبوع الى اسبوع .

وكرهت نفسي ان ألجأ الى أحد من الميسورين من أهلي ،
وهم غير قليلين بحمد الله ..
كرهت نفسي ان ألجأ اليهم ، لانني تحديتهم جميعا وخيبت

رجاءهم قاطبة بالخروج من الخدمة الاميرية بعد ان وصلت اليها بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليها ، وشق علي أن أرفض نصيحتهم ثم أسمى اليهم لالتمس معونتهم ، وخيل الي أنهم قائلون بلسان الحال ان لم يقولوا بلسان المقال : انك أعرضت عنا وذهبت الي الصحافة .. فأمامك اليوم صحافتك العريضة ، فخذ منها ما تعطيك .. !

والي أن يوجد العمل ، ما العمل ؟ ..
تبين لي بعد قليل أن المصرف الاكبر بالامس صالح أن يكون اليوم موردي الاكبر ، ان لم يكن موردي الوحيد ..
هذه الكتب الكثيرة لم لا تباع الي أن تتجده القدرة على شرائها ، ان تجددت الحاجة اليها ؟ ..

انها الان تعد بالمئات بعد الاقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات .. وليس من المنظور أن تباع بثمن الشراء مع الحاجة الملحة الي البيع السريع ، ولكنها تباع بما يكفي لقوت اليوم واليومين والاسبوع .. وقد تكفي خمسة قروش لقوت اليوم في تلك الفترة ، ولا علينا من أجرة البيت وأمثالها من النفقة المتجمعة التي تقبل التأجيل زمنا طويلا أو غير طويل ..
ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا - مع الدرهم الخصوصية - بضعة شهور ..

لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء ..

من سكن الريف عرف خير ما في بنات حواء من مروءة وصفات ، ولم يخف عليه شر ما فيهن من كيد والتواء ..
هن الامهات المتطوعات للشباب الناشيء المنفرد بمعيشته في عقر داره ..

من ترى يهيبه له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه
وترتيب أثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من
بنات الجيران ؟ ..

وقد كنت أسكن في حدائق القبة في ضاحية كالقريّة
الريفية في كل شيء ، ومنه - بل أهمه - الامهات المتطوعات
والخطيبات « المزعومات » ..

وكانت لي خطيبة منهن لم أخطبها ، ولم أتحدث اليها ولا
الى أحد من أهلها في حديث زواج .. وكانت لها صاحبة لعوب في
مثل سنها متزوجة من بعض ذوي قرباها ، فقالت لي ذات يوم :
ان فلانة لا تأتي الى ناحيتك في هذه الايام لان صويحباتها
يعاكسناها ويسمينها خطيبة « أبو طويلة » .. ولا تغضب هي من
هذه التسمية ، بل تقول لهن مزهوة مستخفة : وما له أبو طويلة
أليس خيرا من المساخط ؟ ..

ولم اشأ أن أجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة
التي لم أخطبها ، ولم اشأ كذلك أن أجيبها جوابا يربط الخطبة
المزعومة ويؤكد لها ! .. ولم أزد على أن قلت : شكرا للفتيات
العابثات ، فقد احسن والله الاختيار والانتقاء .. ولو كان في
نيتي أن أتزوج أو أخطب لما وجدت في الحي زوجة أجمل من
صديقتك الحسنة ..

قالت : كأنك في غير هذا الحي تجد من تخطبه ؟ ..
قلت : ولا في غير هذا الحي .. ولكنني الان في شاغل عن
الزواج . أفلا ينبغي أن أعول نفسي قبل أن أفكر في زوجة
أعولها ؟ ..

وكانها خطبة قد انعقدت بهذا الحوار ، وكأنه حق مكتسب
للسؤال عن الحركات والسكنات ، وعن المبيت في المسكن وغيايبي
عنه بعض ليال ..

ولم أفارق المنزل بحملي من الكتب على دفعتين أو ثلاث حتى اعتقدت الخطيئة انني أنوي الرحيل ، وأهم بفسخ الخطبة التي لم تنعقد قط بكلمة تصريح أو تلميح .. وعزز اعتقادها عندها انني كنت احمل كتابي للمطالعة الى حقل من حقول الليمون بجوار جدول في طريق كنيسة ، فقبل لها انه يهيم بفتاة قبطية هناك ، وانه يؤجل مسألة الزواج بها لانها مشكلة ، لا تنحل الا اذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين ..

وأين أنتم يا أصحاب المنزل الغافلين عن مكانه وعن زواره وجيرانه ؟ ان ساكنكم الاعزب ليستعد للهرب بالاجرة المتأخرة عليه .. فان لم تصدقوا فتربصوا له في الطريق وانظروا اليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة ليترك لكم حجرتم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن اجرتم الضائعة ان حجزتم عليه !
وصدق أصحاب المنزل الغافلون ، أو المزعوم عنهم بالباطل أنهم غافلون ..

وحيل بيني وبين أول « رصة » من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت أن تكون مشاجرة ريفية من طراز الشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة ، ولكن الله مسلم والهمني أن أسلم الكتب وأمضي بسلام ..

وفي يومها اقترضت اجرة السفر للعودة الى أسوان ..
وفي اليوم التالي لوصولي الى أسوان ، أرسلت منها حوالة بريدية الى صديق لي من أبناء الاقليم يدير محلا مشهورا لبيع الطرايش وتركيبها ..
وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التي لا تقع في حسابان ..

فقد كان صاحبنا الطرايشي ممن اشتهروا في ترويض الطربوش الابيض احتجاجا على دولة النمسا التي كانت تصدر

الينا الطرابيش الحمراء ، لانها اعلنت ضم بلاد البشناق اليها
من املاك الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون وامتغنوا برهة
عن الطرابيش الحمراء بالطرابيش البيضاء ..
واضطجعتها وكلاء المعامل النمسوية في القاهرة ، فنصبوا
فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجار الذين اشتركوا في حركة
المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرابيشي من اقليم أموان ..
فلما وصلت الحوالة البريدية الى القاهرة ضاعت في تيه
الحراسة والحجز والتصفية واجراءات « السنديك » وأمناء
الحسابات ..

ومضت سنوات وأنا لا أعلم مصير كتبي في معتقلها
المهجور ، الى أن لقيت الامتاز عبد العزيز الصدر عرضا فأنباني
أن جيرانه في حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها ،
وانه على استعداد لردها الي بئمنها اذا أردتها . فشكرته وقلت
له انني لا أحتاج اليها ، ولكنني قد استردها بئمنها اذا اتسع
لها مكان عندي ، ولم يتسع لها - بعد - مكان ..

بين الأمل واليأس

وصلت الى أموان كالساهر الذي طوى الليالي وصلاا بغير
راحة ، ثم ركن بجانبه لحظة واحدة الى طرف الفراش .
انه في سهرته يواصل الحركة ولا يبالي متى يرقد
ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدري متى هو قادر على
النهوض .

كنت أجور على جسدي ولا أعرف لهذا الجور حدودا يرجع
عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمني قط بصخرة من صخورها
ولا بحاجز من حواجزها ..

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديرية بالزقازيق ،
ثم أعبى المدينة في ليالي الشتاء الى مسكني على حافة كفر
الصيادين .. فلا أكثرث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا
أحملة تخففا من مؤنة حملة على الذراع ، وهو معلق في حجرة
الدار . يعلوه الغبار ..

وكنت أقضي اليوم في حدائق القبة على وجبة واحدة من
الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لي أن اهمال
الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع .
وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقني ما قرأته فيه فلا القيه

من يدي حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء في البيت غير شمعة أو مصباح ذي فتيل ..

وكنت أحسب أن سفرتي الى اموان ضرورة الجأتني اليها قلة « المصروف » في القاهرة ، فلما وصلت الى اموان علمت انها ضرورة ما في ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الافلاس في ذخيرة البنية واعصابها وليست بضرورة الافلاس في ذخيرة الجيب ! .. وقد وقع في خلدي انني ازداد نشاطا في بلدي لانها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الاقرباء والاعزاء ، فعجبت بعد ايام حين رأيتني أفقد النشاط لايسر الاعمال ، وكنت أحسبه تيارا متجددا لا يقبل النفاذ ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لي كأنني مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هناك غير الركود والاعياء باجماع الاطباء، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون الى المدينة مشغولين أو يفدون اليها في حواشي الامراء ..

وتملكنتني فكرة الموت العاجل ، فأدهشني انني لم أجد في قرارة وجداني فزها من هذه الفكرة ، وكدت أقول لنفسي انني أطلبها ولا أنفر منها .. !

واخال ان صدمة اليأس كانت أشد على عزيمتي من صدمة المرض ، أو على الاصبح ، من صدمة الاعياء .. وأشد ما أصابني من هذا اليأس انه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من امل واحد ..

خلاصة الامل !

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية في الحياة ، لانني قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة في كتب « الفلسفة المادية »

وأكثر من النظر في مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لي أنه
أصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين
الأوربيين باسم الدين ، ولاح لي من النظرة الأولى على غير روية
فيه أنه يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه
وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه ..

وكذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليومية » .. ان
« الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان » ..

وقصة « الخلاصة » هذه هي قصة الأمل الذي بقي عندي
يومئذ في شهرة الأدب ، وفي عدد الأيام التي أقضيها قبل ظهور
هذا الكتاب ، وكنت أظنني مبالغا إذا حسبتها بأكثر من
الأيام !

هو الموت إذن كما استقر في خلدي بلا أثر ولا خبر .. وهو الموت
إذن أمضي إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ،
ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ..

وهل هذا يليق ؟ يا ضيعة لرجاء المجد المتطلع إلى عشاقه
وعباده ؟ .. فهل أقل من هدية في اليد تجبر خاطر العرف على
أبواب الأبدية ؟ وهل يقال أنه يجلس على الأبواب في انتظار زيارة
فارغة اليدين ؟

ويجوز أنني كنت أطيق في تلك الغاشية ان أوفي القربان
المطلوب بتصنيف كتاب من وحي الساعة والمنامية ، ولكنني
عدلت عنه لضيق الوقت والشك في اتساع الأجل . ويجوز أنني
أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود ..
فاذا كان ما تيسر كافيا فذاك ، وان كان للمجد ضريبة أغلى مما
تيسر فله ان يتقاضاها حيث يلقاها .. فلا خير في جود بغير
الموجود ..

وما تيسر يومئذ هو « خلاصة اليومية » .

يوميات اليأس !

و « اليومية » هذه هي دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات ، وأبادر الى ايداعه أبيات الشعر التي نظمتمها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رؤوس الموضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادير الاحاديث العابرة التي أعاودها في مناسباتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع في وهمي أنني سأذهب - بغير اثر ولا خبر - تصفحت هذه الدفاتر ، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها الى صديق في القاهرة أقول له ان هذه الصفحات هي كل ما أتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدني أهلا للذكر ووجدها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج عليه ان يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها في زاوية من زواياه ..

ولبثت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا من اسلحة الفكاهة والنكايه يشحذه اخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متمللا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الامد على انتظارها .. ومنهم من يقول مستمهلا كلما شكوت أو التمسست العلاج : على رسلك بالله ..! ان المطابع مشغولة في هذه الايام .. فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها .. !

وما برحوا يستعجلونني ويستمهلونني حتى أرحتهم وأرحت نفسي بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت اليها وحذفت منها،

وكان من التوفيقات التي لم اترقبها أنها نفذت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من الفي نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة بأئسفة من الحياة ..

الإكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معي وهم الموت حقبة في أسوان ، وعاش معي حقبة اخرى في القاهرة .. بعد ان رجعت اليها في وقدة الصيف ، ولكنني التفت فلم أجده معي في شاطئء الاسكندرية يوم ذهبت اليها لأول مرة ، بل وجدتنني مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة من لجاج الامل والمغامرة . وبرحت الاسكندرية بعد شهرين لابحث عن عمل بالقاهرة .. أين ؟ افي الصحافة ؟ كلا .. فما زالت الصحافة في مثل محنتها التي عهدتها يوم انتهيت من عملي فيها .. أفي التدريس ؟ .. كلا أيضا .. فان المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لي بأحد من أصحابها .

ولم يطل بحثي هذه المرة ، فأنني وجدت « المأوى » الذي لا بد منه في عمل بين الصحافة والوظيفة ، او بين خدمة الميري والخدمة الحرة ، فعملت في قلم السكرتارية بديوان الاوقاف .. كان الامتاذ « عبد الرحمن البرقوقي » رحمه الله قد أصدر مجلته « البيان » وكتبت فيها بعض الفصول، ومنها تلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة .. وكان من دأب الشيخ البرقوقي أن يسأل شيوخ الادب رأيهم في مقالات المجلة وابوابها .. فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعي ، وسأل محمد المويلحي صاحب عيسى بن هشام . فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ،

وزاد انتقاده في ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لانني ترجمت عنوان الكتاب « بالاكاذيب المتفق عليها » واقترح الشيخ البرقوقي ان « نسجعه » ليوافق أسماء الكتب فجعلناه « الاكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة » .. فلما جاءه النقد من بعيد - وهو على عادته مريع التصديق - قال لي انه لن يرفض رأبي مطاوعة لرأبي السجعة بعد الان ..

ومأل مصطفى صادق الرافعي فزاده انتقاده ثقة بي كذلك ، لانه قال لي انه يسمع حكمه في البيان العربي ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه « الفكر ومباحث العصر الحديث » ، وقد أنحى الرافعي على « نوردو » وعلى كاتب هذه السطور ، فحسنت هذه الشهادة المعكومة عند الشيخ ..

ولقي صاحبنا المويلحي فسأله عني قائلاً :

— بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شيء !

قال : اتراه يعيش على شيء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ انني لا انتمي الى « السيد حسن موسى العقاد » المشهور ، وانه لا قرابة بيني وبين ذلك البيت ، وانني اعيش بالقليل مما يردني من أهلي ، وبالقليل من اجور المقالات او فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحي مبتسماً : « انه أولى بالوظيفة من اكثر « التنايلة » الذين عندنا في هذا الديوان . » فطلبتها ، فأجيب طلبي لساعته بغير امتحان ..

وقد كان ديوان الاوقاف في تلك الحقبة مجمع الادباء والشعراء من شيوخ وشبان .. كان فيه محمد المويلحي ، واحمد الازهري صاحب مجلة الازهر ، واحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصري ، وعبد العزيز البشري ، وحسين الجمل : وحسن الدرس ، وعلي شوقي ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحي ،

وغيرهم من « المحررين » المغمورين .. وكان عملي الاول فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية ، وهي وظيفة من أخطر وظائف الديوان في ذلك الحين .

سمسرة الخديو

وكأنما هي قسمة واحدة تلقاني على صور متعددة في جهات مختلفة .. فكلما اشتغلت بعمل من الاعمال وجدته في ابان ازمة من ازماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب في تاريخه ، وأول هذه الاعمال عملي في وظائف الحكومة باقليمي قنا والشرقية .. ففي هذين الاقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية الاجتماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الادنى لمرتبات الوظائف الى خمسة جنيهاً والشروع في تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات .

واشتغلت بالتحضير الصحفي يوم كانت الصحافة المصرية في أخرج أوقاتها بعد قيام الاحزاب وقبل اعادة قانون المطبوعات ..

ثم هأنذا اشتغل بديوان الاوقاف ، وهو ميدان المعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح . ولست بأسف على هذه القسمة التي تسوقني الى الاعمال في ابان أزماتها ومراحل اضطرابها ، فقد كانت أنفع لتربيته النفسية من فترات الهدوء والاستقرار .. وكان عملي في ديوان الاوقاف بين سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملي في وظيفة من وظائف الارتزاق ، فقد كنت أجهل الكثير من حقائق بلدي ومن أسرار شؤونه العامة لو لم أقبض تينك السنيتين في ذلك الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة في وظائفه وامواله .. وكان مع
الامسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسياسة ،
ولا يأبى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات وامتباحة
السمسرة على صفقات الاستبدال .. وشاعت في تلك الايام قصة
أرض المطاعنة التي أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه
باسم «العمولة أو الوساطة» وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه
ووقفوا له في طريقه من الموظفين النزهاء ، فعاقبهم على الامانة
واليقظة بالفصل والاهمال ..

وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين
السلطتين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة
في داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لا يستطيعون المساس
بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الاستانة لجس النبض في دار
الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام بجواز الرقابة
الرسمية على نظار الاوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو أمير
البلاد ..

وكان طلاب الاصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء
على المفاسد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية اشد
الارتباط .. فلا أمل في اصلاح هذه المعاهد ، ولا في اصلاح
القضاء الشرعي معها ، ولا في اصلاح الازهر بفروعه ما لم تكن
ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من تلك العزلة
التي جعلتها أشبه شيء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ،
مع الفارق بين ضيعة يفار عليها مالها وضيعة يبدها من يملك
الامر فيها ..

مقالات بلا توقيع !

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان .. والقلم الذي عملت فيه هو حومة المعركة في ميدانها ، لانه القلم الذي تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى ، وهذه هي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصنفقات .. والسنة التي عملت فيها بالديوان هي السنة التي انتهت بتحويله من ديوان الى نظارة ، وصدور الامر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ..

ولقد كانت فضائح الاوقاف سرا مباحا لكل من يميل اليه بأذنيه .. فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف في قلم السكرتارية يتصل كل يوم بموظفي الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التي تعرض على مجلس الادارة أو المجلس الاعلى ..

وقد هالني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا أجهل قبل ذلك انها شيء يهول .. وكنت اتكلم ولا اتحفظ ..

وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي أختلف اليها ، وكلها في بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهلية حيث كنت اقيم ..

وكان الامتاذ حسين روجي الايراني صاحب احدى المدارس الكبيرة في العباسية البحرية ، وكان يعمل في ساعات من اليوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية ، فجاءني عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

— ارجو ان تغتفر لي غلظة وقعت فيها بغير اذتك ! ..

قلت : خيرا .. فما أظن انني عرضة منك لغلطة تضير ..
قال : انهم سألوني اليوم عن مقترحاتك في الصحف وانا
اترجمها لهم فقلت انني اعرف كاتبها ، وذكرت لهم انني اراك
في كثير من الايام .. فهل يفضبك ما فعلت ؟
قلت : انني كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب في الصحف
بتوقيعي لو كنت أمتطبع ذلك مرتين دون أن يبادروني بالفصل
من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج علي ..
قال : ليس هذا كل ما في المسألة .. فان السكرتير الشرقي
يريد ان يلقاك .. فهل لديك مانع ؟
قلت : لا مانع لديه فما المانع لدي ..

قالوا : لا يزال صغيرا

وبعد يومين لقيت مستر متورز مع الاستاذ حسين
روحي ، فاستهل الحديث بالكلام على الادب وعلى برنارد شو ..
ثم امتطرد الى الكلام على الصحافة ، واكثر من الكلام على
صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا الى
الكلام على الاوقاف فسألني عن صفقة منوية على ارض يملكها
عين مشهور من اعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهي
لا تزال في دور التحضير الاول ولما تصل مذكرة من مذكراتها
الى قلم السكرتارية ..
ثم بدرت منه كلمة جافية لا ادري كيف جرى بها لسانه ،
الا ان يكون قد تعود الجهر بأمثالها ولم يتعود من أحد ان ينكرها
عليه ، فقال : الا ترى ان حرمان الاوقاف من الرقابة الاجنبية
هي علة هذه المفاسد التي شاعت فيها .. ؟!
فصدمتني هذه الكلمة النابية ، ولم البث ان اجبتها بحددة

ظاهرة ، فقلت : ان المجلس البلدي الامكندري يتمتع برقابه
اجنبية من كل جنس وملة ، ولا اظنكم تحسبونهُ مثلا من امثلة
النزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم امتأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة
للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : ان اللورد -يعني كتشنر-
كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد مريع ..
فنهضت وودعت ، وصادفني اللورد على باب المكتب فأوماً
بالتحية ومضى في طريقه ، وجاءني الامتاذ حسين روجي في
المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا .. ان الرجل اجفل
من جوابك الصارم ولكنه قال : ان حديثك كان شائقا جدا ..

وأراد الامتاذ روجي ان يصرف الموضوع ، فقال ان مسألة
« المؤيد » كانت عندهم أهم من مسألة الاوقاف ويلوح لي انهم
كانوا يودون لو توليت تحريرهُ ، وكانوا يظنونك اكبر منا من
عشرة العشرين ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا :
انه لا يزال صغيرا .

وهكذا عدنا الى حديث الصحافة من طريق ديوان الاوقاف ،
وهكذا منعود اليه بعد قليل ..

بين الوظيفة والصحافة

معركة الأوقاف

عملت في ديوان الاوقاف .. وكان عملي في مكاتب السكرتارية اقرب المكاتب الى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان من خفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقايع التي تطفو على وجه الماء .. كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولنـدن والاسـتانة ، وتشترك فيها حاشية الخديوي ودار الوكالة البريطانية وحزب الامير حلـيم واعوانه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الاصلاح .

وكان الخديوي يستमित في التشبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الاحوال ان تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحبته في ذلك انه صاحب الولاية على الاوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الاحوال ..

وكان المحتلون يحاربون السيطرة الخديوية على الاوقاف كما يحاربونها في كل جهة أخرى .. ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الاوقاف - بصفة خاصة - أن يحولوا بين الخديوي وبين استخدام أموال الاوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت

مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..
وكان طلاب الاصلاح في حرج شديد لانهم يريدون ان
يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل به من المعاهد الدينية،
ولكنهم يكرهون ان يتوسلوا الى ذلك بمعونة المحتلين ..
ثم حدثت في السنة الاخيرة التي عملت فيها بالديوان
حوادث مختلفة بين القاهرة والامستانة غيرت وجوه المسألة ،
ويسرت ما لم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة . .

الخديو بين نارين

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الاصلاح متنبرا
« قوميا » ينادون من فوقه بوجوب الاشراف على ميزانية الدولة
كلها ، ومنها ميزانية الاوقاف ..

وتولى الحكم في الامستانة اناس يكرهون الخديوي لانهم
أصدقاء أسرة حلیم المناقسة لاسرة اسماعيل ، ولانهم يذكرون
للخديوي مصادرتة لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة
« طشيبوز » التي كانت في حوزة محمد علي الكبير ، ثم استولى
عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا انها كانت هبة شخصية
لرأس الامرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالميراث ..

وامستطاع المحتلون في ذلك العهد أن يكسبوا لهم عضدا
قويا بدار الخلافة ، وان يحصلوا على وعد من أقطاب الحكومة
التركية بمساعدتهم على تقييد ميطرة الخديوي في الديوان ولو
اقتضى الامر خلعها وامتناد الامارة الى أمير في بيت حلیم ..

وتم اخيرا تحويل الاوقاف من ديوان الى نظارة او وزارة ،
وكان اسم الوزارات يومئذ - وهو النظارات - مما يسوغ ادماج

الاقواقف في عدادها ، لاشتهار الاشراف على الوقف باسم
النظارة ..

أول وزير

واختير للنظارة رجل من انصار الخديو ترضية له وتغطية
لخدلانه ، فكان ناظرها الاول في عهدا الجديد « أحمد حشمت
باشا » رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب
القصر بين الاحزاب الثلاثة ، وهو حزب الاصلاح على المبادئ
الدمستورية ..

وبعد ايام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءتني
بطاقة صغيرة من بطاقات الدعوة الى مكتبة ، محدود فيها للمقابلة
ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار .

وكدت أجزم بالباعث الى دعوتي لمقابلة الوزير ، وأنا موظف
في أصغر درجات الوظائف في سلك الخدمة في الديوان .

وماذا يكون الباعث الا انني من المشهورين بإدارة الديوان ،
وانني ممن تتجه المظنة اليهم في الكتابة عنه بالصحف والعلم
بأسراره من المذكرات وكتابة المذكرات ؟

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه في الواقع كان تخميننا نادرا يدل على وجوب التردد في
قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فان الوزير لم
يتعرض لمسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وانما
خاطبني في أمر مقالة من مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها
بتوقيعي الصريح ، وهي مقالة كتبها تأيينا للشيخ علي يوسف
صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة «عكاظ» الاسبوعية

التي كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازني ، وشكري
وبعض الزملاء ..

ومن أضحيك المصادفة ان الوزير كان صديقا للشيخ علي
يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه .. وكان
من أشياعه القليلين الذين مشوا في جنازته وأشرت اليهم في بعض
ما ذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة .

من فصول الشيطنة !

وكان الشيخ علي يوسف قد ترك « المؤيد » وهجر الحياة
العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات .. وقضى نجبه غير
مذكور من أقرب المقربين اليه ، فلم يسر في جنازته منهم غير
آحاد معدودين ، بينهم وزير الاوقاف ..

وقلت في تأيينه ان الرجل كان « نفاعا ضرارا » ولكنه كان
ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الاعوان في مشكلاته
وقضاياه .. فمن وصلت اليه يد من ايديه لم يكافئه عليها بالمحبة
وخلوص النية ، ولكنه يحس انه مدين مطالب بدين يوفيه في
يوم من الايام .. فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون في
جنازته متحدثين متشاغلين ، لانهم في حالة نفسية أشبه بحالة
المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كأنها لهجة الامتاذ الذي يلوم
تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط
الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال بعد الاشارة الى مقال
التأيين : « كان أحرى بقلمك الناشئ أن يتخذ له في تأيين الموتى
منهجا أطيب من هذا المنهج .

وكان عليك الا تنسى : في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

« اذكروا محاسن موتاكم .. »

فاجتهدت ان يكون جوابي في لهجة توائم لهجة الوزير ، وقلت ما معناه : « انني لو علمت للشيخ حسنات غير التي ذكرتها لما فاتني ان اذكرها .. »

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

« على كل حال ، اجعل لقلمك مستقبلا كمستقبل الشيخ ان استطعت ، واستخدمه في عملك ، ودع عنك فضول الاقاول والاحاديث . »

شبح المؤيد !

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

ما هذا المؤيد الذي يلوح لي انني القي شبحا منه أينما ذهبت هذه الايام ، حيث اريد وحيث لا اريد ..

قبل اسابيع - على ما أذكر - جاءني تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة الى المحافل والمجتمعات يقول كاتبها « سيد كامل » انه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالاقلام الفتية في تجديد حياة « شيخ الصحافة » .. او كلاما من هذا القبيل ..

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ ..

انني لم اكن اعلم عنه شيئا ، وأشفقت ان يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل الانجليز .. لانني تبينت من حديثي مع مستر « ستورز » انهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون لو يبعثونها باشرافهم وتحت رعايتهم ، وقال لي الامتاذ حسين

روحي انهم كانوا يظنون انني « أصلح » لهذه المهمة ولكنني
خببت رجاءهم ..

مولاه !

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هذا الرجاء ،
فاختاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من بعيد ؟
خطر لي هذا الخاطر لاول وهلة .. ولم يفارقني حتى علمت
المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » فعلمت انه افضل
واصدق في الوطنية وفي الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من
بعيد او قريب .. وقد كان مولاه الذي تولى تعليمه في فرنسا على
حسابه بتوصية من صاحب المؤيد هو الخديو عباس الثاني ، وهو
الذي رشحه للقيام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ علي
يوسف لعمله في الصحافة .. عسى ان يحتفظ بأمانة التراث
الموكول اليه من ولي نعمته ومن استاذه الموصي عليه ..

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الاول لي بحديث عن
المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو
شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على مقربة من تلك
الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لي - لو أردت - أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ،
فانها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تنزل تلاحقني بخبر
من هنا واشارة من هناك حتى عادت بي الى العمل الصحفي
محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتي اليه قصيدة
نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية
بنظارة الاوقاف ، وهو المرحوم عبد الحلیم المصري الذي كان
يتطلع الى مكان « شوقي » في القصر الخديوي ، ووصل اليه
ولكن بعد زوال الخديوية ..

فضيحة الادب

نظم عبد الحلیم قصيدة من أحسن قصائده عن « الخصيب »
أمير مصر في أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه

بيننا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعني في الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره
أحمد شوقي ، وما كان بالقارئ من حاجة الى البراعة لفهم
هذه الموارد المكشوفة .. فقد فهمها كل قراء المؤيد من الادباء ،
ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الاول في تلك
الاونة : احمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين
ليشرف على تحرير هذه الصحيفة في أدق مرحلة من مراحلها ،
وخاتمتها ..

أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا في المؤيد
دون غيره من الصحف اليومية والاسبوعية ؟ ..

فضيحة من فضائح الادب والصحافة لم ينم لها حافظ
عوض ، ولم ينم لها شوقي ، ولم تنم لها نظارة الاوقاف ..
وأولهم ناظرها في ذلك الحين - محمد محب باشا - وقد كان
متهما في الحاشية الخديوية بمحابة الانجليز ..

وحضر « حافظ عوض » ذات يوم الى ديوان الوزارة ،
ولقيته في مكتب الوزير ولا أدري على التحقيق هل دعاني أحد الى
المكتب للقائه ، أو ذهبت الى المكتب بغير دعوة من أحد لسبب من
أسباب العمل في مذكرات المجلسين : مجلس الادارة ، والمجلس
الاعلى ..

ولكنني لقيت حافظا يبتدرني بالسؤال والسلام ، ويقول

لي مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ ان مكتبك مستعد بدار المؤيد ، وان عملك الذي خلقت له ان تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات .

ثم قال : ان صفحة الادب في المؤيد تحتاج الى أديب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من اعمال الصحيفة غير كتابتها او الاشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو ان وقتي كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفلني هذا « الولد » ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التي جعلتنا مسخرية المجالس الادبية .

ولم أتردد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية في شيخ الصحافة العربية ، فانتني لم اكن أطمح في الرابعة والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة .. فان كانت لدي بقية من الرغبة في صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار اذن لما هو اولى بالقبول من هذه الدعوة بعد ان جاءتني بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل للتردد الا أن يكون عملي في نظارة الاوقاف أحب الي وأجدي علي من العمل في الصحافة ، ولم يكن عملي في النظارة مرضيا لي في حياتي الادبية ولا في حياتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ ..

العودة الى الصحافة

وامتلاً مكتبي « الخالي » بدار المؤيد قبل ان ينقضني الاسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودني الطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكرة سابقة من هذه المذكرات .. لا أدخل عملا الا وجدته في مرحلة من أدق مراحل تاريخه ، منذ عملت في الوظائف الحكومية ، الى أن عملت في الصحافة ، الى أن

عملت في ديوان الاوقاف ، الى ان عاودت العمل في الصحافة كرة
أخرى !

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني
القارىء عن شرحها انها وافقت الشهور الاخيرة من تاريخ
الخدوية المصرية قبل الحرب العالمية الاولى ، وانني لم أملك
في المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي
شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحاتها الادبية وصفحاتها
الاخرى ، وتركتني فيها بين دمئس القصور ودمئس
الصحيفة التي لزمته من مخلفاتها التقليدية !

كان الخديو يعلم ان لورد كتشنر يصر على خلعه ويرشح
للخدوية أميرا من أمراء بيت حلیم ، وكان يعلم ان كتشنر لن
يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الاستانة او قوة الرأي العام في
مصر ، وفي طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية .

فأما قوة الخلافة في الاستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره
في تلك السنة الى الاستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الاوربية
كعادته في السنوات الخالية ، ليبقى الى جوار الخليفة متأهبا
لاحباط المؤامرة عليه .

الخديو يزور سعد زغلول !

واما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه
البحري تعمد فيها زيارة الاعيان في قصورهم وزيارة الفلاحين
بين أكواخهم وامتقبال الشعب حول مرادقات الاحتفال حيثما
نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها أحد من الكبار او
الصغار ولا من الرجال أو النساء . ولج به الحرص على ابراز
صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية ، فجعل اسماءهم في

الصف الاول بين اسماء الاعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول .

ولم يشأ الخديو أن يؤتمن على مراسلة « المؤيد » باخبار الرحلة احد أقل من رئيس تحريريه فأخذ حافظ عوض في ركابه ، وجاءني حافظ الى مكتبي قبل سفره يمهد للطلب الذي يريده مني : وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصيغة الادبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الاخيرة ، وهي الصيغة التي ستظهر بها في الكتاب الذهبي. وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصحيفة التي ستظهر بها بعد ذلك في سجل شببيه بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول :
- انه عمل أدبي خالد على أية حال ، وانه يستحق أن أوجل من أجله صفحة الادب الى حين .

الكتاب الذهبي !

وانهالت الرسائل كالمطر المنهمر من المراسلين واعيان الاقاليم وكل من قال له الخديو كلمة أو قال كلمة للخديو ، وضاق الوقت عن ملاحظتها بالقراءة والترتيب فضلا عن التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبل أن تنفتح صفحة من صفحاته ، ولا يزال منطويا الى الان .

مشارك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه الى حجرتي بدلا من حجرة المحرر الذي كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها الي بقائمة مكتوبة لايداعها في ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها . فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود انه اعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمي ، وانه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية : مائة

وسلسلة ذهبية .. ولي بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب .

وتركت « الملفات » في أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستعفيته من العمل في الكتاب وابلغته ما سمعت ، وقلت له ان محرري «المؤيد» احرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون ان يزجوا باسمي في معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق لي اذا فعلوا ذلك ان أصبح ظنون الناس ، وسأترك له - أي لرئيس التحرير - أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون ..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور . ووعدني أن يكتب غدا في المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عني في أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجاني ان أغض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل في الكتاب .

ويعلم أصحاب الامتياز حافظ رحمه الله انه كانت له مواطن ضعف في تحياته ومقابلاته ، ومنها انه يتشبه بالامير في مناورات الرضى والغضب والتقريب والاقصاء ، وانه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والاعراض ولمحات الابتسام والعبوس ، وقد شهدنا في مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات ، كانت هي فصلها الاخير !

آخر عهدي بالصحافة !

في مساء ذلك اليوم زارني الاستاذ المازني والامتياز محمود سعيد الذي أصبح بعد لك مستشارا في المحاكم الاهلية . ونزلنا الى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر بنا لنستقلها الى

ندوتنا المعهودة عند دار القضاء «في الوقت الحاضر» .. ولم نكد ننادي المركبة العابرة حتى مر بنا الامتاز حافظ عوض يحيينا بيميناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون .

وكان هذا اخر عهدي بالمؤيد واخر عهدي بالصحافة قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهاية الصيف !

يجوز ..

أغلب الظن عندي ان قصة خروجي من نظارة الاوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء وقدرًا » كما يقولون في لغة التحقيقات القانونية .

أما العارفون بتحقيقات الحواشي الملكية فقد كان لهم رأي اخر في القصة بحذافيرها ، وكان من رأيهم ان الخطة وضعت يومئذ في القصر لفصل كل موظف بالاوقاف عرفت عنه المعارضة في نظام الديوان ، لا فرق بين أكبر الموظفين وأصغر الموظفين ! وكان أكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والامتبدال عبد الرحمن فهمي « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا الى المعاش .

وكنت انا أصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلي بالاحالة الى المعاش ، فليكن فصلي « بصنارة » الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول الى البر .. غير الامين ! و « يجوز » هي كل ما اقوله في التعقيب على هذه الفكرة القريبة البعيدة ، ولولا انني استقلت من النظارة ورفضت استقالتي قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل على القناعة « بالقضاء والقدر » في تعبير العارفين بالحواشي الملكية !

في الحرب العالمية الأولى

ساعات بين الكتب

أقمت في القاهرة أياما بعد استقالتني من تحرير « المؤيد » على نية السفر الى الصعيد الاعلى ، وقد منيت نفسي موسمًا كاملاً من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجي لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الاثار في أسوان، وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من ايام الفراغ الى ايام المعاليك الى ايام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذي نويت تأليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلاً على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التي وقعت في خاطري وأطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب اردت به ان أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لي من النظر والمراجعة والاحاديث .

وكان الموسم خصباً حقاً بثمرات التأليف ، لانني انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ،

وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه في السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه واعيد طبعه مرات ، لان « ساعات بين الكتب » التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو متين صفحة .

الانسان الثاني

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سميته « الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات . وأتممت رسالتي « مجمع الاحياء » تلخيصا للأراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التي تهديها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهي الكتاب الوحيد الذي تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت في هذا الموسم الامواني أكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لانها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسي سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت الى أسوان وانا أحسبني في اجازة منها الى موعد غير مسمى .. وخيل الي أنها ستكون أقل الشواغل شغلا لي حتى في الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فان عاودني الحنين اليها فلتكن عودتي اليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة في حكم القصيدة الشعرية ، توحى بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ..

وقدرت ان الكتابة الصحفية لن تشغلني قارئاً ولا كاتباً خلال مقامي في أسوان ، الا انها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ،

فاذا بمقالة واحدة كتبتها - من هذا القبيل - تشغلني أضعاف
شغلي بمقالات الصحف سنوات في أخرج أيام القلاقل والقضايا
والازمات ، مع انها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم
تزد نسخها المتداولة أولاً على عدد أصابع اليدين ..

تلك هي مقالة « نادي العجول » ، كدت أذهب من جرائها
الى جزيرة مالطة وأنا أخرج الى المقام بأسوان أو في جو القطر من
المشتى الى المصيف .

« شهوة » و « شبهة » !

أدركتني الحرب العالمية الاولى وأنا في أسوان ، وأحس
الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف
الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، لان
أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق
بين النيل والبحر الاحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الاحكام
العرفية فيها الى رئيس اقليمي بعيد من الرقابة مطلق التصرف
في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون
الادارية في الاقاليم .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على
الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين واذنابهم من المسلطين على
الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع
القوانين والوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الاحكام
العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين
المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة في الاستبداد أن تصبح هوسا
في نفوس بعض « الحكام » .. ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن
الفرصة سانحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب
وشفاء للضغائن والاهواء . وماذا يمنع الرشوة أن ترفع

رأسها وتصيح بين الزوايا وفوق الجدران اذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يقيد التحقيق اذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار « المتهم » من ذوي الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالاكثريين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في أسوان انه أراد أن يقضي يوماً مع أسرته في الجزيرة المغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في أيام الاجازات ، فارسل النادي « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدّثه نفسه بالنزول في الجزيرة ان يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار ..

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوئها في اقليم أسوان الامن الوديع ! تجنيد اجباري لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، واتاوات تفرض لعة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، أو انذارا بالسداد في غير تردد ولا مساومة .

نادي العجول !

حدث هذا في بلدي وبين أهلي وعشيرتي وأنا أنظر اليه بعيني وأستمع الى أخباره بأذني وأحس كل مظلمة من مظالمه باحساس قريب واحساس انسان ..

حدث هذا وأنا في الخامسة والعشرين .

وحدث هذا وأنا اقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول من أقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله في الحكمة :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

لا يا أبا علي ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فان كان موت
يا صباح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء
الكلام ... !؟

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتباً الى وزير الداخلية
والى السلطان .

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتباً الى وزير الداخلية
الاصح قصيدة منشورة سميتها « نادي العجول » ..

نادي العجول هذا كان « نادياً » للسادة الحاكمين ومسراة
القوم في المدينة « فتحه » الرؤساء بكل معنى « الفتح » ... لانه
كان أشبه شيء بالفزوة في طلب الاملاب ، من طريق المساومات
والالعب .

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان الحضور
فيه مفروضاً على بعض الناس في ساعات معلومة كي يخلو الجو
لبعض الناس الاخرين في تلك الساعات ..

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادي العجول ، ولكنني
سميته كذلك لان رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولانه
« حظيرة » من حظائر « الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون ! ..
وأضعف الاعضاء نفوذاً في ذلك النادي الموقر كان يملك
الترخيص لي بالسفر على حساب الحكومة الى جزيرة مالطة ، غير
مشكور مني ولا ملوم من احد على ذلك الاحسان بالاكراه ..
ولكنني كتبت المقال ، وتنامخه الادباء ، وارسلته الى
الصحف ، وقرأه النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ،
وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجترىء

على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم
واللحوم ! ..

مقامة فكاھية

وأعود فأقول ان القافية هي التي قضت قضاءها في
الموضوع - ولا قضاء لي فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع كما
ينبغي أن يخرج مقامة فكاھية أو قصيدة منثورة ، يقرأه ، من
خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها رائحة الحملة التي
يجترىء بها القائل على الحكم العرفي المخيف ولا على الحكم
القانوني اللطيف .. ويقرأها من امتلاً ذهنه « بالموضوع »
فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك
العجول .

قال رئيس النادي في مقدمة المقامة : « ايها السادة .. ان
العجل مدني بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني
آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون .. وقد غير بهؤلاء
الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأمننا ويتمسحون بأذيالنا ، حتى
أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا احد سوانا ، فعبدونا
من فرط الاجلال .. وسبحوا لنا بالعشي والاصال ، وكانوا
يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسا
وأرفعهم ذكرا - اعني الاسكندر المقدوني - بزني القرنين وما
اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ان أصغر عجل فينا ليهشم رأسه
اذا ناطحه ، ويجندله اذا واثبه او صارعه ، فالعجب لك أيتها
العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع
والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد .. »

وقضى حكم القافية قضاءها في قراءة « الموضوع » كما

قضاءه في كتابته ، فأصبحت المقامة في مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التي يؤدي فيها الامتحان بعد يومين آخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكر ذلك المجد الخالد ، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخاثر ويتجاهل ويخاطب العضو من الاعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعني بهم زمرة الاعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : أنت مدني بالطبع.. أنت أشجع من الاسكندر .. أنت يقام لك وزن .. أنت مخير على الآدميين ، الى أشباه هذه « التلقينات » الرمزية التي كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح .

وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالاتا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادي العجول .. كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبيانات ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن مر هذه المقابلة التي يستدعي لاجلها من أسوان ، فنعلم انه سمع فيها ما ليس يرضاه .

الرشوة والاتاوات !

وكانت هذه المناوشات تجري سجالاتا بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع في المدينة ، ثم في الاقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادي العجول .. فاذا بالمناوشات التي كانت فصحة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهي الى مخرجها الذي تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين ان يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادي العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفي لأنه

نفي قبلي ناظرا لمدرسة المواصاة ، وكنت أنا ناظرها الثاني فأشفق القوم أن يقال انهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة في البلدة .. وكل ما استطاع المدير أن يقنعهم به هو ان يشدد علي الرقابة ويقيد اقامتي بالمدينة ، فلم أكثرث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لانني بطبيعتي كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء او في النيل .

وفتقت الحيلة للمدير ان يصدمني بمفتش الداخلية الانجليزي ، فألقى اليه انني أتهمه بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين « أتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لانني كتبت في الواقع أقول وأعيد أن المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوميه ..

واستدعاني المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش Corrupt في الحرب ولا في السلم » ... فبدت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول - سواها - لو قصدتها عن روية .. وقلت : ان الانجليز جديرون بالتهنئة لانهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح في حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعهد القتال .. فلو أنني تعمدت الروية لما وجدت أمامي مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم ، ولكنني لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى .. فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائي من المدينة ، وقال عني انني أخطر من ناظر المدرسة الذي نفته السلطة قبلي الى جزيرة مالطة ،

وكنت قد تعمدت ان اشغل مكانه تحديا للامر الذي صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة ..

وجزى الله مقامة « العجول » خيرا في هذه المرة ، فان قارئاً من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السري الذي كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير .. فوجب الرحيل اذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .. وقضت القافية ان يكون الراحل في هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا مساعدة المدير .

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمي اذا خرجت ، ويسلمني في المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد ..

أصبحت من أبطال المغامرات !

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكنني أصبحت بطلا من أبطالها على الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها .. فوصلت الى القاهرة قبل أن يعود منها جواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأنني كتبت بيدي قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة أمابيع .

ارسلت ملابسني من المنزل في مقطف عليه قمح يغطيه ، وذهب به حامله الى بيت في شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس الى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض أقاربنا بتذكرة من أموان الى القاهرة ، وتواعدنا أن القاه بالقطار في محطة « الخطارة »

ويعود هو الى أسوان على المطية التي وصلت بها من أسوان الى
الخطارة ..

وأعدنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من ثثق به من
الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل في الصباح على الرغم
من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك اذا تزحزح الحارس
من مكانه الى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها ونتوارى
على الاثر في منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث
تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا أن نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك
الهنية القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعيد بالله من
ثورات غضبه ومن خفته الى الشجار والخناق ، فرجوناه في ذلك
اليوم ان يغضب ، وان يبالغ في الغضب وان يفارق المنزل بعد
الفجر كأنه ذاهب للصلاة، فيشتبك في خناقة خامية مع أول عابر
من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين الى الاعمال .

وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس الى باب
البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لا يعرفنا من يرانا ولو
كان من معارفنا .

أكبر مقلب للمدير !

وكنت بعد ذلك بيوم في ديوان الداخلية أزور صديقنا
الوزير الاديب جعفر والي « باشا » وكيل الوزارة ، ثم تتابعت
الايام والتقارير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات
التي أدبرها ، والاحاديث التي أذيعها والاقاويل التي أثير بها
الخواطر وأستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من
الديار ..

أنا في القاهرة يصطحبني وكيل الداخلية كل يوم الى مكتب
المستشار ، ويشهده على مقامي بعيدا من أسوان بأكثر من
ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان يراني المفتش
والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤامرات ..
والنتيجة معروفة ...

في هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ، ويصدر
الامر بأحالة المدير الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ،
وأعرف اسم المدير الذي خلفه فأبادر الى ابلاغ الخبر لاصدقائنا
في أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل » .
وكان المدير الخلف « محده مقبل باشا » الذي اشتهر بعد
ذلك في مناصب الادارة .

بين الموت والحياة

كنت رقيباً على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحرب العالمية الاولى أكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها - على ذلك - كانت متعددة منوعة ، لانني اتصلت فيها بالوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملاً واختباراً فقد عرفته وصفاً ونظراً واطلعت على طرف من اسراره واخباره عن كثب . فكتبت الى المجلات الشهرية والصحف الاسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة الصحف أياماً معدودة، وندبت «للمراملة الحربية» في صحراء سيناء، وكنت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها الى زواياها ونواحيها. وتشاء الحوادث أن اشتغل بالرقابة على الصحف وهي من أبغض الاعمال الى نفسي والى فكري ، وتشاء هذه الحوادث ان اهتئ نفسي بالخيبة فيها بعد ايام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموقفة .. !

كانت لي صداقة أدبية بالمغفور له « جعفر والسي باشا » وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العالمية الاولى ، وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون احياناً « عثمان

فهمني « بك الذي كان مديرا لاسوان فمديرا لقنا فوكيلا
للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه في
عهد الملك احمد فؤاد ، محالا على المعاش قبل اوائه ، لانه لم
يحسن ان يشترك في ادارة الخاصة على الطريقة التي يرضاها
صاحب الجلالة !

وكان حديث جعفر والي معي في الادب يكاد ان ينحصر في
المفاضلة بين أبي تمام والمتنبي . فانه كان يفضل أبا تمام
ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملاً حواشيه بالتعليقات والملاحظات
التي توافق مشربه في تفضيله ، وكنت أنا تلميذا للمعري في
هذه الخصلة كما كنت تلميذه في خصال خلقية او فكرية شتى ،
واعني بها خصلة « التعصب » للمتنبى وقلة الصبر على القدر
فيه والانتقاص من أدبه .. أما الامتاز « عثمان فهمي بك » فقد
كان كلامه في العلميات والفلسفيات اكثر من كلامه في الموضوعات
الادبية ، وكان يناصرني احيانا في تفضيل المتنبي من الوجهة
الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة في حملته على « نفخة »
الشاعر الكذابة . مع تعرضه للرفد والسؤال ، مما يخالف
أصول البلاغة على قوله ، وهي مراعاة مقتضى الحال ، أو المقال
بحسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » انني ابحت عن عمل في القاهرة لان
حالة « الكبد » عندي لا تسمح بقضاء الصيف في أسوان ،
وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد
من مشكلة الرقابة على الصحف العربية ، وانهم يكادون ان
يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لانه احق الناس ان يعرف كيف

يختار للرقابة اناسا من ادباء المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها .

وقال لي ذات مرة « ان يوسف خلاط بك » مدير المطبوعات على حد تعبيره « في ثياب ضيقة » .. ولكنه هو يخشى ان يلبسه القوم هذه الثياب .

وأزوره يوما على موعد ، فيقول لي ضاحكا : انني آمنت بعظمة المتنبى وفضله على أبي تمام .

ثم يلمح دهشتي فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو ان تستخدم لنا حكمة صاحبك في عمل من اعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف العربية ..

تكميم الافواه !

قال : والحيرة في أمر هذه الرقابة ان أكثر الرقباء بإدارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للافواه والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف في المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم أن صحيفة من الصحف تلعب بالالفاظ لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الغرور وظنوا أنهم يغلبون الصحيفة في المكر واللعب ، فيحذقون الخبر ويصرون على منعه ومنع الاشارة إليه . ومن ترخص منهم في السماح بنشر الاخبار التي يحرص عليها الصحفيون فانما يترخص في ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من أجل الصداقة او من أجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا ادري ماذا اصنع وانا الوكيل المصري المفروض فيه انه أقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك أن تؤدي هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغي ان تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال ..

وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد أصبحت من القوالب المحفوظة في أحاديثنا حول بلاغة المتنبي وبلاغة ابي تمام وحظ الشعاعين من الحكمة على مقتضى الحال .
قلت : انني اقبل العمل في الرقابة ولا غضاضة ، ما دامت الرقابة من المصالح العامة في أيام الحروب .

عجرت والحمد لله !

وبعد ثلاثة أيام جاءني تنبيه ومسؤال عن بعض الاخبار التي تركتها للنشر وتحقق لهم انني لم احذفها .
وبعد يومين او ثلاثة جاءتني دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من « يوسف خلاط بك » فلما دخلت المكتب سألتني مستر « هور نبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الي رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية .

فقلت بعد اجالة النظر فيها : نعم .

فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الاخبار المقلقة التي من هذا

القبيل ؟

قلت : انها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو اخطر منها بكثير .

فصاح متهكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

— هل أنت من الحزب الوطني ؟

قلت : انا مصري وطني بطبيعة الحال .

قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبت بكلام فحواه انني لا افهم المقصود بالمعطف معهم ، ولكنني لا ابقى في هذا العمل اذا كان يتطلب مني شعورا لا

افهمه ، وله ان يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها ..
وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد امسبوع واحد،
وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة .

المراسلة الحربية

أما المراسلة الحربية فقد نديت لها من طريق الكتابة في
مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة ثوبنهور .

وكنت اعمل بالتدريس في مدرسة وادي النيل الثانوية
بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف
والمقطم . فزارني الاستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موفدا من قبل
الدكتور يعقوب صروف وقال لي ان الدكتور وبعض ذوي الشأن
ينتظرونني بعد الفراغ من الحصبة قبل فسحة الظهر . ولم
يخبرني شيئا عن موضوع الدعوة .

قلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من اصهاره ومعه
الشيخ الغنيمي التفتازاني ورجلا انجليزيا لا اعرفه ولم يعرفني
به الدكتور ، ولكنه قال :

— انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود
الشرقية ، وكلهم يظنون ان الهجمة منها قريبة على قناة السويس
ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليك ان يعيد الطمأنينة الى
نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهي
حاضرة عند المختصين بالمسألة .. واثار الى ناحية الرجل
الانجليزي ، وكل ما يطلب منك ان تطلع منها في القاهرة على ما
يلزمك وان تهيء نفسك بعدها للرحلة الى النخوط الامامية في
صحراء سيناء ، ثم تصفها باملوبك المعهود لان مجرد الوصف
الصحفي الشائع لا يكفي للاقناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان في

مخبر من مخبرينا او مخبري الصحف الاخرى من يعني هذا
الغناء .

رأيي الذي لم أعلنه !

وأحب ان أعيد هنا رأيي الذي أعلنته في اثناء الحرب العالمية
الثانية ولم أستطع أن أعلنه في أثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد
كان من رأيي في الحربين ان تتولى مصر واجب الدفاع عن
حدودها موقورة السلاح والامستقلال وألا تتولاه - بدهاة - في
ظل الحماية او الاحتلال .

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له انني لا أكره
أن أبتث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم
أما وهو - كما يحدث الان - من عمل دولة الحماية فليس من
المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها .

وكان الدكتور يعلم رأيي هذا في الحماية من احاديثي معه
قبل ذلك خلال زياراتي له في صده مقالاتي الادبية ، فكاد ان
يعتذر من مواجهتي بالاقتراح لانه نسي اننا تحادثنا في مسألة
الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان
في الاقتراح شيئاً لا اميغه لما فاتحني به ، وجعل يقول مازحا :
اذن تعود الى المعري وشوبنهور .. !

ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الجلسة فاه بكلام
يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني ... فانه طفق يقول
ويعيد : يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في يا سيد عباس ؟ أليس المهم
الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين .

أنا والمازني .. بين الموت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى عدت الى التحرير في الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل في الصحافة والتدريس الى ما بعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب .

فالعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارسته سنتين مع صديقي المازني في مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارسنا الثانوية ، وجرت العادة في كل مدرسة ان ينتهي عملنا فيها بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح اوراق الامتحان ، لاننا كنا نصحح اسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر الى أوراق الامتحان كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

فلما وصلنا الى الاوان المقدور للازمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين على سكنى الامام الشافعي حيث تقيم أسرة الامتاذ المازني من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل في طلب العمل بضعة اشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء .

وقلت للمازني : ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني انتظر العمل في صناعتني حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه .

ووجد صديقنا المازني عمله ناظرا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولبثت أنا بالقاهرة اترقب اوائل الشتاء لاعمل فيما يتهياً من عمل ارتضيه أو أزمع الرحلة الى أسوان .
وكنت أحسبني مترقبا على غير جدوى لان ركود السيامة الوطنية في ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية التي كانت

تنطق بألسنة الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة السورق
بالصحيفتين الباقيتين - وهما المقطم والاهرام - الى ورقة واحدة
من صفحتين لا متسع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما
هو من قبيل « المحتويات » التقليدية في الوقائع المصرية ، فاكتفت
كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين .

وكنا « نفذ » على المدينة من « حي » الامام الشافعي
مرة كل اسبوع ، وكان يوم السبت على الاغلب هو موعد هذه
الزيارة الاسبوعية ، لانه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة
الاحد ، فلم اقبل على المكتبة التي كنت أتردد عليها في هذه
الزيارات حتى تلقاني صاحبها قائلاً بل صائحا : اين انت يا
استاذ ؟ ان الامتاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو يأتي
الى المكتبة ويعود ليسأل عنك وقد يؤس من لقاءك فأوصى
الامتاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال
بك في شأن هام كما قال . وقد كان الامتاذ عبد المؤمن هنا
الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما اعرفه
بالامام ، ولا ادري في أي مكان هو بانحاء الامام ..

وعلمت بعد لقاء الامتاذ عبد المؤمن انني مطلوب للتحريير
في صحيفة « الاهالي » بالامسكندرية ، وأنني امستطيع أن أعد
نفسى للسفر خلال اسبوعين أو ثلاثة ، وعنده تفويض
بتسليمي مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده
كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة في تقدير المرتب ، ان كنت لا
أرضاه .

قلت له : لا حاجة الى المراجعة الان ولعلها في الامسكندرية
أجدر وأيسر ، وانثنت يومئذ الى الامام لاعداد حقيبة السفر
واختيار ما أحمله معي من الكتب الى الامسكندرية ، والامستغناء
عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين

في تلك الآونة .. لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .
كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير ،
ووادي النيل ، والاهالي .

وكانت « البصير » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الامكندرية نفسها الا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسمايرة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر فيها شؤون السياسة المصرية الا كما تذكر صحيفة « خارجية » .

وكانت « وادي النيل » صحيفة المجلس البلدي أو صحيفة المناورات والمنازعات بين اعضائه واحزابه ، ولها - من ثم - عناية بمسائل الامواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما اليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية ، بعد انقطاع « الشعب » خليفة اللواء ، وانقطاع « المؤيد » و « الجريدة » .

أما « الاهالي » فقد كانت في نشأتها صحيفة « شبيهة بالرسمية » يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لانها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » أحد السامسة القلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأي العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة . فأوعز الى طائفة من اصدقائه الاسكندريين بانشاء شركة « الطبع والنشر الاهلية » واستهلال عملها الصحفي باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا

اسم «الاهالي» لصحيفتهم عمدا ، لانه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباظة باشا رحمه الله ، ولان اسم «الاهالي» يقابل اسم « الشعب » واسم « الامة » مصبوغا بالصيغة التي تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة . ولم تنزل « الاهالي » صحيفة الحكومة «الشبييهة بالرسمية» اى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدي باشا التي اعلنت الحماية على مصر في عهدا ، فلبست « الاهالي » بعد ذلك لباس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بها الحرب والرقابة . وكانت هذه المعارضة تقوم على أسامين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدي ، والآخر ايمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية في امتناض الحجة « القانونية » أو الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد « عثمانيا » في تفكيره وشعوره الى اللحظة الاخيرة ، وكان هو صاحب الرأي القائل بالارتباط بين البحث في مسألة الحماية والنظر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة في الحرب العالمية .

واوشكت « الاهالي » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشدية ، لان مشتركها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما طواه من الصحف المهملة أو المعطلة ، ولكن ظروف الحرب انقذتها بعض الانقاذ من حيث لا تحتسب ، لانها حصرت الاعلانات في ايدي شركة تحتكر الاعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للجانب بنشر اعلاناتهم في صحيفة افرنجية وأخرى مصرية ، فكانت « الاهالي » هي الصحيفة التي تتسع لنشر تلك الاعلانات في ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذي

تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد
ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها في ذلك
المعترك العصيب (١) .

وبقيت في تحرير « الاهالي » الى نهاية الحرب وظهور الدعوة
الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وافترقت
الخطة العامة بين الصحيفة والوفد فتركتها وعملت في الصحيفة
التي كانت تجري يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر
جديد في حياة مصر وحياة الصحافة وحياتي الصحفية ، يقترن
بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها .



(١) وقف الاستاذ العقاد - في الفصول السابقة - حتى عام ١٩١٩ حين
قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول . وقد اشترك بقلمه في هذه
الثورة مؤيدا للمبادئ الوطنية والسياسية التي كان يؤمن بها . حتى اعتزل
السياسة في عام ١٣٩٥ حين افسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون في ذلك
الحين عن المبادئ المثلى . . كما اشرنا الى ذلك في « تقديم هذا الكتاب » وتوفر
على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والادبية في المجلات الكبرى . ولهذا
نقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التي لم تنشر من قبل في كتاب من
كتبه .

ذكريات وشخصيات

صديقي المازني

صديقي المازني أحوج الادباء الى التعريف بحقيقة فضله ،
لاني ما رأيت أحدا من المعجبين به الا وهو يجهل بعض مزاياه ..
وليس ذلك لخمول في الذكر . فقد بلغ - رحمه الله - من الشهرة
غاية ما يبلغه الاديب في البلاد العربية .

وليس ذلك لغموض في النفس يباعد ما بين ظواهرها
وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة الا عرف انه من
أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجها بخفاء .
ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله - أو بكل حقيقة فضله -
لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء
بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها « ملكة السخرية » ويخيل اليه
انها على مثال السخرية التي اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين
... ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هي بها . لانها
تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوي
على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية .

وانما هي على ما عرفتھا واختبرتها ، شيء آخر غير
السخرية وان كانت شبيهة بها :

هي حب « المعاكسة البريئة » ، او هي الدعابة لا ضير فيها

على احد ، ولا فرق بين الدعاية على النفس والدعاية على الآخرين .

لم يكن يبالي ان يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالي ان يقدح في أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد الى القدح والانتكار ، ولم الجهد والعناء ؟ ..

لقد كان يرى ان حقائق الدنيا كالخيال ، لان غايتها الى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء .. !

وكان يرى ان الناس يضمنون بثنائهم كأنه شيء لا غنى عنه . فكان يريهم انه في غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : « ان استطعتم فقولوا في أدبي وفني ، وفي شخصي ومسيرتي ، أكثر مما أقول » .

وليست هي بفلسفة وليست هي بمظهر . هي طبيعة فيه عهدتها منه في غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه ، كاتبا أو غير كاتب . وغاية ما هنالك انه كان يطاوعها حينما فيسترسل فيها ، وانه كان يكفها حينما فلا تظهر كل الظهور .. كان ولعه « بالمعاكسة البريئة » تسليته الكبرى . ولست أحصي ضروب هذه المعاكسات التي كان يرتجلها ارتجالا في أكثر الحالات ، ولكنني أذكر حادثا منها له اتصال بجانب نفسي في تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التي تفسر الاقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التي يسميها بعضهم فلسفة حياة .

قل من يذكر أن المازني شغل بالموسيقى في عنفوان شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا كثيرة فيه ، واستطاع ان يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضي السهرة ذات ليلة في ناد كبير من اندية الموسيقى والغناء وطابت السهرة الى ما بعد منتصف الليل ، وكان يببت يومئذ بمنزله على مقربة من الامام ، ولم يكن خط الترام قد وصل بعد الى الامام ، وقد كان الترام الذي يذهب الى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .

وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصله في مركبته ، مركبة خيل ، لان السيارة لم تكن شائعة في تلك الايام . وكان الجو ليلتها رائقا والقمرء في أوانها ، ومسكون الهزيع الثاني من الليل يفري بالغناء .

ويظهر أن الحوذي - حين رأنا نخرج من النادي الغنائي - قد بدا له اننا من هواة السمع ، فلا حرج عليه اذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من « الطقاطيق » التي يهواها ، ولم ينس ان يعتذر الى « زبونه » بعد أن رفع عقيرته بالغناء : - لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، ان محسوبك من هواة السمع ، واني .. وقبل ان يمعن في الاعتذار ، يادره « الزبون » قائلا :

- خذ راحتك .. « أنا والله أحب أسايرك » . !
فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح . لان الجواب الذي سمعه جزء من « الطقطوقة » التي كان يفنيها . وراح يفني تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة أخرى ، وخلصتها انه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه الى جانب « تخوت » الآلاتية « ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما امتطاع الافلات من رقابة البوليس .»

وانجلى الحوذي ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسي البوليس والزبون ، ومضى كأنه في ليلته يود الاتنقضي به الطريق .

وتدرك أخانا ، المازني ، تلك الشنشنة التي لا تفارقه ،
ويوحي اليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائي »
الذي أقحمه الحوذي عليه فأفسد عليه في آخر الليل ما سمعه في
أوله : ان المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة
التي يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك .. »
فماذا لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد
الزبون ؟ .

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وختل المركبة والمطرب
المشغول بغنائه لا يدري لان خلو المركبة واخلأها بذلك الحمل
الذي كان فيها يستويان !

والتفت الحوذي بعد ان طالت الرحلة ولم يستمع من
الزبون صوتا ولا امرا بالوقوف .. فطار ما في دماغه من الغناء ،
وامتلاً بكل ما وعاه في حياته من البذاء .

ولا حاجة بالقارئ الى ترديد ما ألقاه من لسانه في ذلك
الخلأ ، وليس من حوله أحد يجيبه اذا استدل به وغريمه الباحث
عنه هو دليله الوحيد .

ويزورني الصديق في اليوم التالي فيسألني : « أتذكر شكل
الحوذي الذي ركبت معه بالامس ؟ »

قلت : « لا أظن انني احقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل
فقدت شيئاً عنده ؟ »

قال ضاحكا : « كلا . ولكنه هو الذي فقد ! .. »

فلم أفهم ما يقوله ومألتة : « وماذا فقد ؟ .. »

قال : « فقدني أنا » .. وقص علي تفصيل تلك القصة التي
أجملتها هنا بعض الاجمال . !

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك
المسكين ، فاذا هو مهموم بالبحث عنه لاعطائه اجره الذي خيل
اليه انه قد ضاع بغير امل ، فقلت له أن حوذيا بهذه الصفة لا بد
أن يكون معروفا بين زملائه في موقفه وغير موقفه ، فهلم الى
الموقف نبحث عنه هناك !

ولم يخطيء ظننا في جدوى البحث هناك ، لان القصة كانت
حديث زملائه جميعا ، وان لم يكن هو في الموقف تلك اللحظة .
فأخبرناهم اين يجدها اذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل
الرجل يهرول وهو لا يصدق ان زملاءه قد صدقوه الخبر . فلما
رأى صاحبه بالامس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره
الذي كان يطمع فيه .. !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما : « لا عدت الى الفناء
أبدا وانا مركب » .. والا « فعلى روحي أنا الجاني » . !
قال الصديق العزيز : « بل تغني ما شئت ، ولكن تعطي
وجهك للسميع ! » . هذه هي « المعاكسة البريئة » التي لزمنا
صديقنا على صبور شتى من صباه الى أخريات أيامه . وتزداد
بها الفجيرة ان تذكرها فتذكر اي نفس طفلة - اي طفولة من
طفولة العبقرية الخالدة - قد عاجلها الحمام .

بهذه الدعاية البريئة - التي لا ضرر فيها على أحد - كان
المازني يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفاراتها ويعني
نفسه من الجهد الذي يبرز للدنيا خير ملكاته ، بل يحاول أن
يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على شيء . !

قادر على نفسه ..

على أن المازني يصحح في هذا الباب خطأ يقع فيه اولئك

الذين يحكمون على الاطوار النفسية بظواهرها وعناوينها ،
فيحسبون ان طبيعة الاستخفاف تقترن دائما بالعجز عن الجد
وصرامة الاخلاق .

والواقع ان الذين عاشروا المازني وخبروه يعلمون انه من
اقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم
جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى من شدائد الايام
ما يقصم الظهر ويغشي آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن
يلقاهم ويلقونه في هذه الاحوال الا بالاكثر من المرح والتبسيط
.. فلا يعرف جليسه أنه في شدة الا اذا تحول مزاجه الى التكلف
المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشتم في مطلع
شبابه على الخصوص ، وكنا نمشي مسافات طويلة لنتجنب
المرور ببعض الاماكن التي تنبعث منها روائح الحانات والنفائات.
ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من ابغض
الروائح الى الانوف ، لانه أراد ان يلقي درسا حاسما على محبي
« الشيطنة » من التلاميذ .

وكان أولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون انهم يحاربونه في
ميدانه حين يعمدون الى ضروب المعاكسات المدرسية التي يغيظون
بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا في المحابر
حمضا كريه الرائحة لا يطاق في مكان محصور ، ومسبق الى وهمهم
ان الحصبة منتضيع في السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن
مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذي جاء به منها - وهو
بطبيعة الحال معمل الكيمياء في المدرسة .. ولكنهم لم يلبثوا
هنيهة بعد دخوله الى الفصل حتى أدركوا أنهم في وهم بعيد ، لانه
لم يسأل ولم يفضب ولم يبد عليه انه فطن لشيء غريب ، ولم
يزد على انه مضى بنفسه الى النوافذ فأغلقها والى الباب فأغلقه ،

وأخذ في الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والابواب ، وهو يزعم لهم ، في جد ومكون ، ان الحجرة المغلقة أصبح من تيار الهواء .

وكان ذلك هو الامتحان الاول والاخير !

ملكة نادرة ... !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانها الكاتب اذا حاول ان يعيد الكتابة في موضوع من جديد . فانها مشقة جهد ومشقة ملل في وقت واحد ، ولكنني رأيت المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق . فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وانه سيطبع المذكرات على التوالي بعد اعادة تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الملل ليملئ على اخوان الامانة درسا في عاقبة الخيانة والخداع .

الا أنتي أظلم ملكات المازني كلها اذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة الى الارادة دون غيرها .

فان الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الاول في صبره على جهد الاعادة ومللها . لانه كان يستطيع ان يفتح المرجع التاريخي الضخم في اللغة الانجليزية وان يلخصه وهو يقرأه ، وان يترجمه وهو يلخصه ، وان يكتبه على ورق الآلة النامسة في وقت واحد . وهي اربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير .

الا أن السرعة في الفهم والترجمة الصحيحة اهون ما في هذه الملكة النادرة .

وأقول النادرة وينبغي ان أقول الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية . فأنني لا اعرف في آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازني في هذه الملكة التي أسميها بعبقرية الترجمة .

انه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البيهتري والشريف ، ثم لا يخرم في ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى .. بل يأتي بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف او أعلى وابلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الاوربي - العالمي - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها في لغة الضاد .

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم في مزايا البلاغ والصقل والسلامة ، ومن دواعي الامسف الشديد انه هجر الشعر وانكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعي الامسف الشديد ان عبقرية الترجمة التي انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربي ويفني الفقيده بعمل من أعمالها الخالدة عن كتابه الضرورة أو كتابة الظروف ..

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة اخرى من انفس الملكات التي يرزقها الاديب والفنان ، وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو روية .

كنز زاخر ..

ونعود فنقول اننا نأسف أشد الامسف لان الفرص لم تهيء

له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الاعمال الصحفية العاجلة ،
ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع ان يتفرغ للتأليف الذي
يريده لامتع الناس بالمعجب العجيب في هذا الباب ، ولظفر العالم
العربي بثروة المازني كلها ، وما أنفستها وما اجلها اذا كان هذا
الذي اتسع له وقته وتهيأت له اسبابه جد نفيس جليل .
كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيما بيننا . فان
تعلمنا شيئاً من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه فانه لخليق
ان يبقى بقاء العربية في حرز أمين ، وحسب العربية من فضله
على أدبها أنه أثبت لها القدرة على مجاراة احداث الآداب بأسلوبها
الصحيح السليم .

ذكريات مع الذكريات

وأبي ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما اكرمها ذكريات ...
انها ذكريات الصبا في بواكيره ..
انها ذكريات الاخوة في حماسة الدعوة الاولى الى الرأي
والمذهب .

انها ذكريات المشاركة في الجهاد الوطني على خلاف أو على
لقاء .

انها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة في جميع
تلك الحالات (١) .

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديبهم
المازني ، ففي مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى ..
لكن هذه « الشخصية » المحبوبة : شخصية ابراهيم الكاتب
وشخصية أبي خليل الصديق - تعفيني من كل حيرة في موقف
الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال انه
شخصي خاص وبين ما يقال انه ترجمة من حق النقد وحق

(١) هذا الفصل كتبه العقاد بمناسبة ذكرى المازني بعد سنوات من وفاته

.. أما الفصل الاول فقد كتبه حين وفاته .

التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التي يقول النقاد انها « مطبوعة في الصميم » كل ما عمله أو تقوله خاصة يعين الناقد والقارئ على فهمها وتفسيرها في مجالها الفسيح الذي تتصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ ..

لقد كان المازني الذي يسخر من كل شيء ، ويخرج لسانه لعابري الطريق هو المازني الذي يسمي كتبه في أخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق الدنيا » و « عالمشي » ، و « حصاد الهشيم » ، وهو المازني الذي أعجبه ذلك الشاعر الذي أوصى ان يكتب على قبره هذا البيتان :

أيها الزائر قبيري أتل ما خط أمامك
ها هنا فاعلم عظامي ليتهما كانت عظامك

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذي يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدثه به الدفين المزور .
في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعاية التي لا يفوتها الاحترام ، والاستخفاف الذي يعن مواطن الاعجاب والتقديس .

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكري يقول له فيما بيننا بالانجليزية .. حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : ان فيك يا أبا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Impish . وكان هو - طيب الله ثراه - لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العفاريت ! ..

وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب انه - على دعابته - لم يكن يفقد احترام عارفيه على اوفاه ، وانه مع استخفافه لم يكن يستخف بمواضع التقديس والاعجاب .

كان رحمه الله قصير القامة يظلع في مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة في مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لانها كانت مدرسة أهلية تجمع الذين تجاوزوا السن في المدارس الاميرية او طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن ايسر من اجترأ هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يظلع في مشيته ولا يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقيض ذلك مهيبا عندهم الى حد المخافة ، وكان لقب « تيمورلنك » هو اللقب الذي اختاروه له من دروسه في التاريخ !
ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان او امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان اي رجل هذا الهزيل الضئيل الذي حاولوا - على غير معرفة به - ان يجترؤا عليه ، لانهم فهموا انه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصي عليه أن يملك زمام الآخرين ، وانه رجل كفو لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين . وبهذه الكفاءة ، وتلك الارادة ، أصبح مدرسمهم الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحبوب .

ولم تكن المدرسة هي الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع يفصل من هذه الفصول .

دخل الى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض السامة التي تستخدم في المنازل للتطهير ، وتقضي التعليمات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه . فسأله الصيدلي حسب التعليمات :

— لماذا تريدها يا امْتَاز ؟

فلم يجب الامْتَاز ، بل نظر الى الصيدلي ورفع ابهامه الى

فمه متلمظًا كأنه يقول : اشربها .
وكان الصيدلي الظريف كفؤًا لزيونه الساخر ، فناوله
القارورة وهو يقول :
— قد حان مرة واحدة كفاية يا استاذ !

وقد كانت دعاية صديقنا الودود سلاحا ماضيا يدفع به
الاذى ، كما كانت سلاحا حاضرا يطرف به الاصدقاء . وكنا
جميعا « المازني وشكري وانا » عرضة للاساءات السخيفة
نتلقاها ممن هب ودب من انصار القديم ، ومنهم من كان يتميز
غيظًا من دعوتنا ، ويتحرق شوقًا الى الفرصة التي تهيم له
سببا من الاسباب للفض من هؤلاء « الطالعين فيها » .. كما كانوا
يصفوننا في لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الاسماء على مزاج أحدنا — شكري —
فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا عن المجامع والمجالس ،
الا من تدعوه ضرورة العمل الى لقائه ..

أما « ابو خليل » فقد كان بدعايته الحاضرة امضى سلاحا
من ان يتراجع أمام المسيء او امام الاسماء ، ولم يكن اخبر
منه بأماليب الانتقام العاجل ممن يخيل اليه انه سيخنقه
بالفصول الباردة : الفصول التي تخرج المقصود بها ، لانه لا
يدري كيف يحتج عليها ولا كيف يسكت عنها .

خرجنا ذات مساء الى ضاحية القبة نتنسم هواء الربيع ،
وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية . فلما مررنا به وجدناه
بين فئة من صحبه وجيرانه على باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما
يكد يستقر بنا الجلوس .. واذا بواحد من الحاضرين يتصدى

لتوزيع السجائر ويتخطاني ويتخطى المازني عمدا ليسيء الينا بهذا الالهال .. وقبل ان افرغ من سؤال نفسي : ماذا عسى ان يصنع ابو خليل مع هذا الذي خيل اليه انه يفحمتنا باساءته ، وانه حر في افحامنا بها لانه حر في سجائره يحيي بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ .. اذا بالدعابة الحاضرة - تحت الطلب - تسعد أبا خليل ، فيمد يده الى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها اليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولني سيجارة ويتناول أخرى ، ويضع اثنتين على المنضدة ، ويقول لذلك المخلوق المدهول :

- هاتان السيجارتان للدورة الالية .. لاننا لا نريد ان نراك مرة اخرى ..

ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول في غير اكتراث :

- لا مؤاخذة .. ! حسبتك خادم الدار ، ولولا ذلك لطردهك صديقنا الكريم .

ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثيرون من صحبه الاقربين وممن لا يعرفهم بغير تحية المزاملة في العمل او تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو - بينه وبين نفسه - لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعي في كل بيئة نزل فيها ولو نزول الطارئ الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التي لا يفضبها الكثيرون من التجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف . فاذا مست كرامته فلا مزاح ولا هواده . وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من

« خدمة الميري » شبيهة بالانتحار ، لانه لم يعط حقه من التقدير بين قرنائيه في الديوان .

وفهم هذا الازدواج المحكم في طبيعته بين فلسفة الامتخفاف وشعور الاحترام ليس بالامر العسير على الذين عرفوه وعاشروه: ان « اللامبالاة » عنده لم تكن نقصا في الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية الى الحياة ، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة الى العاطفة الانسانية في شعابها التي لا تحصى : كان ملء النفس عطفًا على الام ، وعلى الابن ، وعلى الاخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالواقع .. هو سر هذا الضيق بالجد المتصل في حالة بعد حالة واحساس بعد احساس ، وكانت نظرتة المثالية الى غير الواقع المتكرر هي التي جعلته يعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هي التي جعلته يعطي للواقع ما للواقع وللمثل الاعلى ما للمثل الاعلى دون أن يمزج بينهما في كل حادث وكل يوم.. فاذا جاء دور المقارنة بين الواقع الانساني وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الابواب للسخرية بجميع مصاريها. ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الاب الذي هو اعطف الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له في الكمال .

بهذه النظرة المطبوعة الى الواقع والى المثل الاعلى استطاع ان يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وان يعرف الغضب للقداسة التي نرفعا الى مماء المثل العليا في كل حين .
فمن غضباته التي نذكرها تلك الغضبة التي اشرت اليها في معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها « عبقرية محمد » صلوات الله عليه .

كنا نزور ساحة المولد النبوي على مقربة من مسكني بالعباسية ، في جولة من جولاتنا التي كنا نسميها بالتفتيش الفني على احياء المدينة .. فذكرنا مقال البطولة النبوية في كتاب الابطال للفيلسوف الايقوسي توماس كارليل . كان يعرف اعجابي بما يكتب ذلك الفيلسوف . فقال :

- ولم لا تكتب انت ذلك المقال من جديد ونحن اولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من اخلاصهم في تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان في الجماعة فتى متحدث يحسب ان حرية الفكر انما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدماتنا نحن دون سائر العالمين .. ففاه بكلام هازل يشير به الى السيف والى الزوجات الكثيرات .. وما راعنا الا المازني الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لمستة لفة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك ان يتبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتي في وجه ذلك الدعي المتحدث : كلا . كلا . ان هذا الهجر لا يثبت الحاجة الى الضرب بالسيف في نشر الدعوات . انه ليثبت الحاجة الى ما هو اصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : انه الضرب بالحذاء توفيراً للسيف عن مثل هذا المقام .. !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد والقدامة ، وبين السخرية و « اللامبالاة » في عالم الادب الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم الى يوم . فكان من صنيع الزمن انه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الاعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهي بها الى الطرفين المتقابلين . فلم يكن للواقع عنده في أخريات أيامه نصيب غير التحدي والسخرية والامتخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الابطال ، وغير النظرة « عالماشي » ، وغير التفويت

والاغضاء .. ولم يكن في اكثر الاحايين أهلا للمصالحة بينه وبين المثل الاعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول .

وسكنت في طويته قوة النضال حتى عاد بشيء من الندم الى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو احق واجدر بالاعتراف ، واحق واجدر بالفضل والتفضيل .

فما كان انكاره لشعره - فيما أعلم وأعتقد - الا تحدياً منه للاعجاب والاستحسان ، ممن يظنون انهم ينعمون عليه باعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، أو يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين ..

وفي هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالي ان يحسب جوابه من الجد أو يحسب من المزاح : انني في مصنع النجارة الفني أعطيك ما تطلبون : وما بالي اعطيكم كرمي الصالون وانتم تطلبون كرمي المطبخ ؟ أو اسومكم ثمن الدولاب وانتم تبدلون ثمن الصندوق الصغير . وخذعته قبل ان تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسني ان السهل الممتنع هو الذي يستطيعه مثله بلا مبالاة .. يطلبه سواء ، بكل ما في وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه .

كان يجلس الى المرقم « التايبرايتير » ليكتب القصة المطلوبة ، أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير .. وكان يكتبه في جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الاخيرة ، فيحس القارئ انه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك ان الذي قرأه كاف ،

واف ، او يزيد على الكفاية والوفاء .

وهنا - أيضا - نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبة و « اللامبالاة » الموجبة التي تغنيها القدرة عن جهد المبالاة .. ربما كانت سهولة الكتابة على المازني تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذي يكتبه بغير اكتراث يحاول المكترثون جهدهم فلا ينتهون اليه . واحسب انني قرأت له المقال الذي كان يكتبه في نصف ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود اليها في ساعات ، فكان اجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذي يقول انه « لا يبالي » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبالاة » الآخرين ..

وهذه هي عبقرية المازني التي لا تجارى : عبقرية تعطي وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا في مسمواتها ، وهي على هذا تعطينا نموذجا منها في النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا منها في ثمرات الفن والادب ، وتشعر وهي تستخف وتسخر كما تشعر وهي تقدم وتجد ، لانها فيما « تباليه » وما « لا تباليه » ، انما تصدر عن فرط شعور ، وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

عبد الرحمن شكري

عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة (١) فلم اعرف قبله ولا بعده احدا من شعرائنا وكتابتنا اومع منه اطلاعا على ادب اللغة العربية وادب اللغة الانجليزية وما يترجم اليها من اللغات الاخرى .

ولا اذكر انني حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت عنده علما به واحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت اليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ . . . وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم ان تهيأت له ملكة النقد على أوقاها لانه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما يأباه فلا يكلفه نقد الادب غير نظرة في الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره في الجلسات الطوال .

لم يسبقه احد فيما اذكر الى تطبيق البلاغة النفسية – السيكولوجية – المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه من شعر الفحول في اللغة العربية . ولعله أول من كتب في لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال *Imagination* وتصوير الوهم *Fancy* وهما ملتبسان حتى في موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك

(١) توفي عبد الرحمن شكري يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء في قول
المعري :

وعلى الافق من دماء الشهيد
ين علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا
ن وفي أولياته شفقان
وبين تشبيه ابن الرومي للأصلح حيث يقول :

فوجهه يأخذ من رأسه
أخذ نهار الصيف من ليله

فالاول وهم في خاطر المعري ، لا يلتفت اليه احد غيره لو لم
يذكره ، والآخر خيال مطبوع يخطر لكل يديهته مصورة تتقن من
التشبيه ما يتقنه الشاعر . وقد كان يشمئز من بيت الوأواء
الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس ومنقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

ويقول ان نسبته الى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته
فلا نجمع عليه « بين قتل الحسين وقول هذا الشعر الذي لا بأس
به اذا أريد للفكاهة والعبث لا للغزل » .
وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الانباري :

ولما ضاق بطن الارض عن ان
يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك وامتماضوا
عن الاكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون الى اللفظ ولا ينظرون الى بواعث الرثاء من النفس الانسانية . فمثل هذا الرثاء يقال للمكايدة او للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد .

شكري الشاعر

ولم يكن امتع من الاستماع الى شكري وهو يقرأ القصيدة العربية أو الاوربية ويعلق عليها بيتا بيتا امثال هذه التعليقات . . وما كتبه من النقد في مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها عفوا الساعة ولا يعنى بتقييدها .

وقد نظم شكري سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التي لم ينشرها وتمتلىء بها كراسة في حجم ديوانين آخرين أو أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة امكنه ان يجمع منها زبدة من اجمل الشعر تضارع صفوة القول في كلام كبار الشعراء . وقد كانت له قدرة على رياضة النظم كما نرى في ترجماته لبعض رباعيات الخيام . فان الترجمة ادل على قدرة النظم من التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التي لا يتصرف فيها ، فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الاحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول اشجا

نا لديه قديمة العهد

تأنس النفس بالتفرد والوحد

ة في ظل عيشه الرغد

حيث تحكي الازهار راحة موسى
في بيض النوار والورد
ولها نفحة كأنفاس عيسى
باعثات للميت من لحد

أو يقول :

ارم قد عفت وصوح قدما
في رباها الربيع والزهر
كأس «جمشيد» قد مضت حيث لا حيد
ث لدنيا من أمرها خير
لكن الكرم لا يزال جوادا
برحيق حبابه دور
ولنا منزل على الروض فينا
ن تروي أزهاره الغدر

أو يقول :

هات لي الكأس يا حبيبي دهاقا
لا تطع عاتبا كئوس العقار
ان ثوب الوقار ثوب شتاء
ليس يغني في الصيف ثوب وقار
اغض عنك الوقار وارم به في
جمرات للقيظ مثل النار
انما العيش طائر بين غصني
من فخذة مأخذ المستطار

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلسيت له في مترجماته

كانت في مبتكراته أسلس وأوفر. وقد توافرت لشكري مقطوعات
أبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء . وكان خليقا ان تتوافر
له في كل ما نظم لولا أن التفاوت طبيعة في اعمال العباقره
والموهوبين ، ولولا أنه كان قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح
يرسل شعره رسالا كما قال :

أرمني بشعري في حلق الزمان ولا

أبيت منه على هم ولببال

ولكنه - على قلة احتفائه بالتنقيح - قد خلص له من جيد
الشعر ما يسلكه في عداد المجددين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق
زمانه في عدة حسنات مآثورات ، فهو من أسبق المتقدمين الى
توحيد بنية القصيدة والى التصرف في القافية على أنواع من
التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات
متعددة القوافي ، ونظمها مزدوجات وأبياتا من بحر واحد بغير
قافية ملتزمة ، وأثر في تجاربه الاخيرة أن يلتزم القافية مع
تعديدها في مقطوعات القصيدة الواحدة ، وتسنى له في جميع
هذه المناهج أن ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية
قبل أن يشيع (١) نظم القصص في أدبنا الحديث وله فيها قصيدة
اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتيم الا غربة ومهانة

داي قريب لليتيم قريب ؟

يمر به الغلمان مثنى وموحدا

وكل امرئ يلقى اليتيم غريب .

(١) لعزل شاعر الاقطار العربية خليل مطران قد سبقه الى ذلك . ففي
ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٥٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٧ م .

يرى كل أم بابنها مستعزة
وهيئات لا يحنو عليه حبيب .
إذا جاءه عيد من الحول عادة
من الوجد دمع هاطل ووجيب
كأن سرور النامس بالعيد قسوة
عليه تريق الدمع وهو صبيب
عزاءك لا يلهم بك الضيم اننا
يتامى ولكن الشقاء ضروب
فهذا يتيم تاكل صفو عيشه
وذاك من الصحب الكرام سليل

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على نماذج
شعره في هذا الباب ، اذ كانت من اسباب وجومه الذي لزمه من
مقتبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم ان هذه القصيدة
اختارها الامتاذ محمد امين واصف في كتاب من كتب المطالعة
مستحسننا لها ، موصيا بحفظها ، من دون ان يذكر اسم
صاحبها ، فكان هذا الاغفال مما ألم الشاعر أشد الايلام لانه
كان يفهم - كما قال لنا - ان يغفل ذكره لاستهجان شعره ،
فأما ان يكون الاغفال حتما عليه مستحسننا ومستهجانا فذلك
كنود عجيب .

ولقد كان بعض الانصاف خليقا ان يلطف من وحشة الشاعر
التي لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على تكران فضله
بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلا ،
مع ما فطر عليه من الحس المرهف والملل السريع .

ففي نحو العشرين نظم شكري هذه الابيات :

لقد لفظتني رحمة الله يافعا
فصرت كأني في الثمانين من عمري
وحاول مني الهم صبيرا فلم ازل
أدافعه حتى ابحت له صدري
واني لا أدري أن في الموت راحة
وأجنبه حتى كأني لا أدري
ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه
لاوردني يأمي على المسلك الوعر
وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهذا
التردد بين اليأس والرجاء لا يدري ما يدافعه من خيبة في حياته
الادبية ولا من خيبة في حياته الوجدانية ، وكلها أثقل وأمض من
ان تطاق في حالة السليم الجليد فلما أطبقت عليه العلة الوبيلة
— علة الشلل — ران عليه وجوم الابد قبل الهرم وقبل الموت
فترك الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول انه
تركها غير مأسوف عليها ..

شكري الناثر

والشاعر الناقد (شكري) كاتب ناثر على امسلوبه ومنهجه
في السهولة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح والتجميل ، لكن
نثره شعر ، ونقده لا تقرأ مثله لشاعر غير ناقد أو لناقد غير
شاعر .

ومن مؤلفاته النثرية كتاب « حديث ابليس » وكتاب
« الاعترافات » وكتاب « مذكرات مجنون » عدا فصوله المجموعة
في كتاب « الصحائف » وكتاب « الثمرات » وطابعها الغالب عليها
جميعا انها وحي نفسه الذي لا يشبهه فيه كاتب يطرق هذه

المعاني والاعراض ، فهي « شكرية » في كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها اللفظ المسترسل ، كما يميزها لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت :
« اننا اذا اغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنا ان يغريهم ذلك بأن يغالوا في حب الحياة حتى يجبنوا .. واذا نحن اغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم ذلك الى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا ان نحثهم على ان يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجح احدهما . ولكن الانسان لا يملك صحة نفسه وسقمها .. فان وراء رغبته في صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فاذا تحالفت هذه الاسباب على اسقام نفسه بأن تجعله جباناً أمام الحياة ، أو جباناً أمام الموت ، كن ضحية لها ولا تنفعه نصيحة الناصحين شيئاً » .

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجده في هذه الملاحظة من امتيحاء شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته لنفسه ولغيره . ثم ارسال التجربة على الورق كما يرسل الحديث في مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير .

ان « عبد الرحمن شكري » شاعر ناثر نسيج وحده في فنه . ومن توحده في هذا الفن اننا نتلقى تعبيره من « شخصية » فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وان جال به الفكر اللماح والاطلاع الواسع في كل مجال .

ولقد عرف شكري الناس معرفة أحزنته أشد من حزنه لجهلهم اياه ، فان عادوا فعرفوه فلعلمهم يرضون أنفسهم بارضائهم لذكراه ..

هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب الي من الاطلاع على تراجم العظماء ، ولكنني على فرط شغفي بالاطلاع على تراجمهم لم أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذي يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل الى رؤيتهم والاتصال بهم ، ان كانوا من الاحياء . وقد يتفق لي أن اقرأ عن أحدهم او اقرأ له كثيرا من الاوصاف والآراء ، ثم يصل الى مصر وتتاح لي فرصة لقائه ، فلا اكره لقاءه ولا اخف اليه ، ولكنني أستطيع أن أفرض انه لا يزال في بلاده دون أن يكلفني هذا الفرض أقل عناء .

انني أحب غاندي وأكبده ، وقد عبر بمصر في طريقه الى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ أن تندبني للقائه والتحدث اليه ومصاحبته في السفر من السويس الى بور سعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأنني ازداد معرفة بالرجل او اكبارا لقدره اذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما أظن الى أسباب شتى : منها أنني تعودت أن أرى العظماء والمشهورين في غير « هالتهم » التي تضفي عليهم ما تضفي من الغرابة ، وتثير في نفوس الناس نحوهم حب الامتطالع او حب الامتشاف من وراء الظواهر والمراسم . وقد تعودت ذلك لانني نشأت في أسوان حيث كنا نرى في كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة

والسامة ورجال الاعمال ولكننا نراهم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء الغرابة الذي يحيط بهم ويفري الانظار بالتطلع اليهم ، ونقدرهم من بعيد كما نقدرهم من قريب .

كانت الصحف والانباء البرقية تتحدث عن ملنر وكتشنر ، وكان أهل أسوان يرون ملنر في قهوة بلدية أكثر روادها من الحمالين والتراجمة والاكارين ويرون كتشنر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان علماء الارض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة في بعوث الكشف والتحقيق يفتدون الى أسوان أحيانا فيزوروننا في المدرسة ونزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء انامنا مألوفين .

ذلك سبب من أسباب .

أما الاسباب الاخرى فمنها حب العزلة الذي ورثته وطبعت عليه ، ومنها انني أتطلع الى معرفة العظمة حقيقة لا صورة ، وأحسب ان رؤية لحظة أو لحظات لا تعرفني بالعظيم ان لم تعرفني به قراءة يوم أو أيام .

لهذا لم أنشط كثيرا الى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لي الفرص للقاءهم ومحادثتهم ، ولم أتوسل بعلمي في الصحافة الى محادثة أحد منهم ، الا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوي الاخطار .

فحادثت أحمد مختار الغازي ، وحادثت سعد زغلول وحادثت أميل لودفيج ، وكان باعث الحديث في كل مرة مسببا غير حب الاستطلاع من جانبي أو ارضاء المستطلعين من جمهرة القراء .

احمد مختار باشا الغازي

ومختار الغازي كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الابطال العسكريين الذين اشتهروا في حروب روميا والدولة العثمانية .

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة و ارادت الدولة العثمانية أن تنيب عنها في مصر مندوبا ساميا مدحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته - فقط - أن يوازن مركز المندوب البريطاني بما في يديه من السيطرة والنفوذ ، فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف في مصر باسم القوميسير . ولم يكن له عمل في السيامنة المصرية ، بل كانت كل أعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة في يوم الجمعة مع أمير البلاد .

ولكنه كان يسأل : « ماذا تعمل في مصر ؟ » . فكان يقول : « انني احتجاج حي على وجود الاحتلال » .

ولما خطر لي أن احادثه كان هذا الخاطر في الواقع « شيطنة شباب » .. لانني أردت ان انقل باسم هذا الرجل الجريء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصري قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الاعراب في طريقه الى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية . فليس اجدر من القوميسير العثماني أن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجري لأناس من الحجاج المصريين في حماية فرقة مصرية .

كان مختار الغازي ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل في عينيه نار متوقدة . فلما تحدثت اليه لم يتحفظ ولم يبال ان يقول كل ما عن له أن يقوله عن اهمال الانجليز للقوة العسكرية المصرية . ولا أذكر تفصيلات

حديثه اليوم ولا يتيسر لي أن أبحث عنه في مراجعه لنقله
بنصه ، ولكنني أذكر أنه قال : « ان الانجليز اهملوا جيش
مصر ، وانني بقوة كقوة المحمل افتح الجزيرة العربية ! » .
و كنت اكتب يومئذ في صحيفة الدستور لصاحبها الامتاز
الجليل محمد فريد وجدي بك . فلما رويت له ما سمعتك من
الغازي ابتسم وقال : « انك لا تذكر حادثة الحدود . » فان
كلاما اقل من هذا الكلام قد اثار الانجليز على أمير البلاد .
فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به
وبمركزه في الديار المصرية ؟ »
ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس
الى ما قيل قد اقام الدنيا واقعدها في الدوائر الانجليزية ،
واحسبه كان من أسباب سعيهم الحثيث في نقل الغازي والمساومة
على مركزه في الامتانة .

سعد زغلول

وحديثي مع سعد زغلول خليق ان يشار اليه ، لانه فيم
أعتقد كان اول حديث لصحفي مصري مع أحد الوزراء المصريين .
ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والاسبوعية
فلا يفوتنا حديث وزاري في عدة من أعدادها المتلاحقة .
لقد أصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد
مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد .
ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضي سنوات بعد
سنوات ، دون ان يسمع فيها صوت « ناظر » من النظار كما
كان الوزراء يسمون في ذلك الحين .
لان النظار كانوا في عزلة عن الرأي العام ، وكان الرأي

العام في عزلة عنهم ، فلا يجسر أحد منهم على الافضاء بحديث
عن ميامنة « نظارته » الى جمهور المصريين .

وعلمت ان سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وانه لا
يبالي ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الدوبارة او غضب
المستشار .

فأردت أن احطم هذا السيد بين الوزارة المصرية والأمة
المصرية ، وهمني ان احادث سعدا على الخصوص لانني كنت
اعجب به واترقب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان في تلك
الايام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه ، وكنت أعلم انها
جائرة . لانهم زعموا انه حارب الجامعة وهو الذي رصد لها
عشرة الاف جنيه في ميزانية الدولة ، وزعموا انه حارب التعليم
باللغة العربية وهو الذي دفع الطلاب دفعا الى مدرسة المعلمين ،
وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في سلك الدراسة ليخرج منهم
أساتذة يعلمون الدروس باللغة العربية . وزعموا انه مالا
الانجليز على تقييد التعليم وهو الذي كان يطوف البلاد من
أسوان الى رشيد لمحاربة الامية بتعميم المكاتب الاولى .

فاتخذت من حديثي معه وسيلة لدفع هذه الشبهات
بالأسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الاسانيد ، ورأيت
بعيني ما يثبت لي صدق ما ظننته في عزيمة سعده واحتفاظه
بكرامته وكرامة منصبه ، لان المستشار العنيد - دانلوب -
جاء يستأذن في عرض أوراق عليه . ولم يكن مستشار انجليزي
يستأذن في عرض اوراق . بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه
ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع .

نشرت حديثي مع سعده في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة

الدستور ، ولم احادث سعدا باقتراح من الاستاذ الجليل صاحب
الصحيفة ، ولكن الاستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين
يعرفون حرية النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما اكتب وانا يومئذ
في مطلع حياتي الصحفية ، وربما ذهب في مسألة من المسائل الى
رأى وذهبت الى غيره ، فلا يرى حرجا في نشر ما اكتب كما
أراه .

اميل لودفيج

أما اميل لودفيج فلم يكن لقائي له عملا صحفيا ، ولا أنا
أردت ان القاه لأنشر ما يجري بيني وبينه من الاحاديث ولكنه
حضر الى القاهرة فأقامت له المفوضية الالمانية حفلة استقبال في
دار وزيرها ، واحب ان يتعرف لهذه المناسبة الى أناس من
المشتغلين بالادب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد
المدعوين .

وتصافحنا في مزدحم من الاجانب والمصريين والرجال
والسيدات . فقال لي انه يود لو تلاقينا في فرصة اخرى .
وكان صديقي الامتاذ محمود الدسوقي مكرتيرا * قيا
للمفوضية الالمانية فدعانا معا الى اللقاء في حجرة من حجرات
المفوضية وأثر لودفيج ان نتحدث على انفراد .

وأحسست من اسئلته الاولى انه ينزع في مسائل المجتمع
والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت انني أوافق
الاشتراكيين في كل ما يؤدي الى تحسين احوال الفقراء والاجراء ،
واخالفهم في كل ما يؤدي الى حرمان الفرد حرته الفكرية
والشخصية .

فقال : « حسن . حسن » وكررها مرات .

ثم احسست انه قد اطمأن الي بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر ، لانه افضى الي بأصرح ما دار بينه وبين المصريين والاجانب من الاحاديث العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألني : « عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأياها يكون له التغلب فيما تظن ؟ » .

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل » .

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم » .

قال : « يسرني ان اسمع منك ذلك » .

واستطردنا الى الكلام عن مؤلفاته فوجدته أقل ما يكور رضى عن قصصه ، واكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيما اذكر ، فقلت له أيضا : « يسرني ان اسمع منك ذلك ، لانه هو الصواب فيما اراه » .

وتركته وفي نفسي أثر من لقاءه يقارب الاثر الذي امتخلصته من قراءة كتبه ، وهو انه صحفي راق ، وان تواريخه وادبياته اقرب الى تبليغات المجلات او تعليقاتها ، وان كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث والدراسات ، لانه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا في تلك البحوث والدراسات .

برنارد شو في أسوان

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذي يطوي الفصول

والسنين ، ونيل خالد وقور يوحى اليك ان تقيسه بالوف اليهود
والاجيال ولا تقيسه بالوف الفراسخ والاميال ، وجيل من
حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ،
أو كأنك تسمعه بأذنيك يقول في سكينته الابدية : « ها أنا ذا
لم أحفل بشيء في دنياك فماذا أصابني على مر الزمن ؟ لا شيء
.. فلا تحفل يا بني بشيء ! » ..

تلك هي أسوان في هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي
أسوان التي أقضي فيها بضعة أيام ، وفي وسعي أن أقول بضعة
قرون حين تغمرني بتلك الآفاق التي لا تعرف حساب الايام ..
اجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاخب في غير
طائل ..

وهل في العالم من يستغني عن هذه الاجازة من سنة الى
سنة او من حين الى حين ؟ ..

ساء حظه ان استغنى عنها ، لانه لن يستغني عنها الا اذا
أضاع نفسه فيها .

ولقد من لنا الله سنة الاجازة من الحياة كلها في كل يوم ،
فهل نستغني عنها في هذا الشغل الشاغل الذي يبغض الحياة الى
نفوس الاحياء ؟ ..

معاذ الله خالق النوم لنا « اجازة يومية » من الحياة ، وليته
خلق للحيوان « السياسي » بالطبع كما يقول أرسطو - اجازة
قهريية ينام فيها عن سياسته .. فان غفلة النوم أروح له من
هذه الغفلة الدائمة وهو مبهران ! ..

وبحمد الله لا زأل أعرف هذه الاجازات ، وان لم اكن في
بطالة ..

الا يقدر أناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط الحركة
والضجيج ؟ .. بلى يقدرون ..

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط المعمة كما كان
يفعل نابليون على ظهر جواده ، استطيع ان أغمض عيني في
عالم الاحلام فاذهب في أجازة اليوم أو الشهر أو العام ..
وانني في تلك الغفوة لأيقظ ما أكون ..

لانني في تلك الغفوة أهيم في أحلام الشعر والفن والادب ،
فلا تقوى معركة «المارن» نفسها على اخراجي من ديوان شعر أو
صفحات كتاب أغلق « أبوابه » علي !

وقلت : هي اجازة في كتاب ، حين قلت لنفسي : « السى
أسوان .. الى أسوان ! »
لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه أن
كاتبه هو الفيلسوف « جود » وموضوعه هو الداعية المشهور
« برنارد شو » ..

فالكاتب أعظم من المكتوب عنه في أكثر من ناحية واحدة ،
وهي على الاقل ناحية الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية ..
وان شئت فقل أيضا من ناحية الآراء السياسية والمبادئ
الدستورية ، وهي اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

بين دوي العجلات ، ودوي الدعوات ، فتحت الكتاب أطوي
صفحاته والقطار يطوي الارض « كطي السجل للكتب » ، كما
جاء في القرآن الكريم ..

ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسي على أبواب

البرلمان من طريق اخر : طريق الاراء والنظريات ، لا طريق
المعارك والازمات ! ..

صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر الى « برناردشو » نظرة
التلميذ الى الاستاذ ، لان شو كان شيخا يقود الحركة الفكرية
يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه في مصطرب
المذاهب والمعتقدات ..

وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابة عضوا استراتيجيا
مع حزب العمال ، فيكتب الى « برناردشو » مستشيرا قبل
الاقدام على هذه التجربة .. لانه استاذ في هذا الميدان ، ولانه
زعيمه في النزعة الاشتراكية قبل عدة سنين ..

وأحسب أنني لو كنت في موضع « جود » لما استشرت
الداعية الكبيرة في أمر من الامور ، لاني على ثقة انه يخالف كل
ما تقترحه عليه. فلو كنت عضوا في البرلمان واستشرته في الخروج
منه لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها !
ولو كنت كاتباً واستشرته في دخول البرلمان لسخر من اقدامك
على هذه الخطوة التي لا معنى لها كذلك ..

لان كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له
على الاطلاق !

فلا معنى اذن لان تعرض عليه أي اقتراح !

ولكن « جود » قد أراد أن « يسأل » على ما يظهر مجرد
سؤال .. ثم لا يعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذي لا شك فيه ..

قال له « شو » ان الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير
قليلين ، ومنهم « ميل » و « برادلو » و « وب » الذي كان عضوا
في الوزارة .. فهل صنعوا شيئاً هناك ؟

وقال له ان « تشرشل » لم يكن عضوا في البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم ساقوه الى دائرة انتخابية اخلوها له ، لانهم في حاجة اليه ، فقد كان شبيهاً مهماً قبل أن يرشح نفسه للنيابة البرلمانية .

وقال له انه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم قط على الرفض والاصرار . . وقال له أخيراً : « ان ورق اللعب لا يزال أمامك على المائدة ، فان شئت فجرب حظك واللعب ورقك .. » ، ثم تواضع « شو » في ختام خطابه ، لان التواضع من مثله رياضة محبوبة بين « الادعاءات الكثيرة » . . فقال في شيء من الملل : « وهذه على كل حال آراء رجل كان ينبغي الآن أن يكون ميتا لانه قد بلغ من الهرم أقصاه ! »

ولم ينثن « جود » عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب الى أستاذه يبلغه أنه ماض في ترشيح نفسه ، فجاءته منه تذكير بريدية يقول فيها : « حسنا .. انك سوف تتعلم على الاقل شيئاً واحداً ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل ! » .

ثم شفعتها بتذكرة أخرى قال فيها : « أمض في عزمك بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياميين » .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح نفسه لانه لم يرض عن أساليب الاحزاب في الترشيح ، لانه عمل برأي الداعية الكبير !

تلك هي اجازتي في هذا الكتاب ..

اجازة ، ولا اجازة .. !

اجازة لانها رحلة في عالم الفكر والنظر ، ولا اجازة لانها
تعود بنا الى السيامسة في بعض الطريق ..
وهي من هنا خبرة حسنة ، لانني قد آكون في اجازة
والقراء « عاملون » !
وما الرأي بعد هذا في نصائح « برناردشو » لتلميذه
الفيلسوف ؟
ما الرأي في تقديره لعمل الاديب ، وعمل العضو في
البرلمان ؟ ..
الرأي الذي لا يتسع فيه الخلاف ان الفيلسوف قد يصنع
شيئاً في المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع وانه اذا
جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليق أن ينبذها بعد ذلك لا
محالة ، لانها تهبط به الى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة ،
ولا ترتفع به قيراطاً واحداً فوق مستواه ..
ومالنا الان ولهذه الظلمات ؟ ..
ان الشمس ساطعة باسمه ، وان مشاهد التاريخ ومعالم
الخلود من حولنا قائمة دائمة !!
فهلهم الى النور .. !

لسان الهلباوي

كان في مصر قبل الثورة العراقية حزبان مياميان :
أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والآخر حزب أحمد رياض
باشا ..

وقد يخطر للتارئء العصري أن تعريف الاحزاب بالاشخاص
دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج
السياسية ..

ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالاشخاص كان سنة
معروفة في ذلك العصر حتى في أعرق الامم البرلمانية .. فكان
الحزبان المتناظران في انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب
غلاستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة
البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين في البرامج ،
ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو
ذاك الوزير ..

كان حزب « شريف » أقرب الى التجديد السريع ..
وكان حزب « رياض » أقرب الى المحافظة مع التقدم في رفق
وأناة ..

وكان الهلباوي بك ناقما على رياض باشا لسبب مسن
الاسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب « الشيخ ابراهيم الهلباوي » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشيء ، واستطرد قائلا : ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه ..

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

— انه لا يستطيع ..

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها في يديه ؟

وقال الشيخ ابراهيم : وليكن ناظر النظار أو أكبر من ناظر النظار : ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله . فانه لا يستطيع أن يخرب لي بيتا .. ففرغ العالم المحقق ، وخيل اليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله ! .

فصاح بالشيخ الناشيء حنقا : أهذا الذي تعلمتموه من جمال الدين ؟ ..

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء في ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد في كلام التلميذ برهانا على زندقة الامتاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوي من تلاميذ جمال الدين .. فلم يكن أمرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذي تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من جمال الدين ! » ..

قال الرجل : أعلمناكم الكفر نحن ؟ ..

قال الفتى المتحدلق : بل علمتمونا أن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتي مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لي بيت ! ..

على أن تلمذة الهلباوي لجمال الدين لم تكن تمنعه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذي كان يجترىء على السيد بالدعابة في مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لي عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث أو تلك الدروس – وكانت كل أحاديث جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التي تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التي تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوي قائلا : يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ فانتفض السيد مغضبا وصاح به : أغرب عني أيها الخبيث .. لعنة الله عليك !

والهلباوي الذي تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوي الذي عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه في عبارة واحدة ، وهي أنه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها » .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوي في كل ما هو مأخوذ عليه ..

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نستمع عنه ممن رآه .. كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا امتثناء ، وكان من آيات شهرته انها دخلت في « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين في شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصاب في الثمن : والله ولا لسان الهلباوي ..

وسمعنا بشهرته كاتبها كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أي طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول في الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال .. ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعني بها « قضية دنشواي » التي وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته .. وعن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان ، فأغمي على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات . ويستطيع القارئ اذن أن يتخيل مبلغ السخط الذي أثارته في نفوسنا رؤية الهلباوي أمامنا وجهها لوجه في دار الجريدة ، يوم القى الامتاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذي أشرنا اليه في الكلام على صاحب « المؤيد » .

لقد كان اغتباطي شديدا بما أصابه من الاذى في ذلك اليوم ، ولكني أقول انصافا له أننا رأينا في الرجل شجاعة لم نرها في غيره من المقصودين بالهتاف العدائي ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوي الا أن يقتحم الجمع خارجا من الدار في ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم والايذاء ..

وغاب الهلباوي زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول ، وكانت المساجلات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها .. ولكنني أشهد القارئ انني ما وجدت القلم ينبعث في يدي انبعاثا الى القول القارص العنيف كما كان ينبعث في الرد على خطب الهلباوي وأحاديثه ، فردهودي عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوي شأن في موقف من أهم المواقف في حياتي السياسية ، لانه الموقف الذي

اعتزمت فيه جديا ان اترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التي عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الاحرار الدستوريون اجتماعا في دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا بالهلباوي هو خطيب الاجتماع ..

واذا بي جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال في كلامه ليهملني عند مناسبة ذكرى ويتجاوز الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة في اليوم التالي ، ورأها فرصة مانحة لارغامي باسم الائتلاف ..

وجاءتني دعوة الى بيت الامة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس (باشا) ..
ما الخبر ؟ ..

الخبر - كما قالوا - أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأنى في هذا البيان ؟ ..

قالوا : بل الشأن شأنك ، لان فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوي بك ..

قلت : انكم احرار فيما تكتبون ، ولكننى سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا اننى أنا المسئول عما اكتب ، ولم يعلم الناس قط اننى اكتب باشارة من احد ..

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من أجل زيارته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته

التي أوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وارسل الى سعد من يقول له ان اللورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته الماثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » ولم يفاتحني في الامر حتى انقضت الازمة ، لكي لا أفهم أنه يقترح علي الكف عن الكتابة في هذا الموضوع ..

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : لن أسمع ، ولن أسكت عن الرد عليه ..

في ذلك المساء زارني مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبري أبو علم (باشا) ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟ » .

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر في عدد الغد من جريدة « مصر » - وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت أكتب مقالاتي كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : اذا كنت لم أستطع أن أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا اقناعي بوقف هذا المقال ..

ثم قلت لهما : انني أملك أن أنشره في غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بيني وبين نشره فيها ..

وكان قد جاءني فعلا من يعرض علي العروض الطوال العراض لاعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء اخر ..

قلت : ما هو ؟ ..

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : انني اذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة بي الى ملام شديد ..

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوي بك لا يقع لي في طريق ..

وحدثت في خلال ذلك جفوة بيني وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بيني وبينه حين كنت أكتب في صحيفة « الجهاد » ..

ثم زارني يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لي : لقد مررت بدارك وأنا في مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسي : فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ .. . قلت : انه فضل لك سبقتني به وعلي أن أشاركك فيه ..

وزرته في دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فاذا بالهلباوي بك هناك ..

فكدت أهم بالرجوع ..

بيد أن الهلباوي كعادته هجم لا يتردد ، فجذب يدي وبدأني بالحديث .

ولقد خطر لي في تلك اللحظة أن واقعتي معه اخر ما يذكره في تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل أحب ان يكتب الله لي ثواب اخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتني ، وأراك خارجا منها على التسعين .. !

وبعد حديث متشعب دعاني والامتاذ عبد القادر الى قضاء مسهرة في منزله .. فاعتذرت ، وخرج معي حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله .. ويظهر أن رغبته في زيارتي له بقيت تساوره زمنا حتى

صدرت صحيفة « روز اليوسف » اليومية وواليت الكتابة فيها ،
فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة
روز اليوسف والدكتور محمود عزمي ، وكانت في الحق من أمتع
السهرات ، لان الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه ..
ولقد كانت أحاديثه في تلك الليلة أكثر من أن تذكر .. الا
أنني أذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت
تخاطب السيدة قرينته وهي تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق
بينها وبين زوجها في السن .. ولم تزل على ظننها حتى نبهها الى
خطئها بنكتة من نكاته التي تناسب المقام !
نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما
يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التي أقلقته وباعدت بينه وبين
الصبر والاستقرار .

طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم أن يستخفوا ولا يحفلوا ، لأنها ترجع الى أسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الازمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لانه دليل على كثرة القيود .

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والادب والخلق والشهرة . كأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فاما حياة وغمول واما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين في تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والادب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء . بل كثرت تراجم الادباء لانفسهم بأقلامهم ونشرها في ابان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لان ما خف من جانب التوقر انما يزيد الحياة ، ولان اساغة التاريخ للاحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الانسانية فسي جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيبها . ولان العصر الذي يساغ

فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذي تتوافر فيه المزايا
والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة
الانسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح .
ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكنني
أكره التحرج الكثير في غير طائل ، وأشايح زماني في هذه العادة
خاصة ، فلا أرى حرجا في الثناء على الدكتور طه حسين أو
اغتيابه على ملأ من الناس .. ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين
دعاني الى اجمال رأي في الصديق العالم الاديب ، وهو يعدني
أو يندرنني بمثل هذا النصيب. وقبلت الكتابة وأنا أرجو الا اكون
مغلوبا حين تنكشف الورقتان المطويتان . اذ الكلام في كلينا سر
مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة
وينجلي السر عن أحسن الحيلة والتخمين .

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول انني شاعر ،
فليضمن الدكتور طه حسين اذن أن أقول فيه انه كاتب ناتج في
الادب ، وخير ما نتجه كتابه « الايام » وكتابه « في الصيف »
وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له في حياته ،
فكان فيهما مثلا في البساطة والثقة التي تعزف بصاحبها عن
التماس التأثير المصطنع بالعمل والتجمل والطلاء والتزويق ،
فالوصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على
مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكنني لم أطلع على
شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من
الشخص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الاديب سيجد عيبا أو عيوباً في
شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره . فاذا ضمننت هذا
فليضمن الصديق الاديب أن علل قلة الوصف المخلوق في كتاباته
القصصية لعيب فيه ، هو قلة الخيال .. فهو يصف ما يعالجه من

المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته ،
والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي يندر من
يحسنها ويشعر بالكفاية التي تأتي من الثقة والاطمئنان التي
صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء .

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول انه اطلع على الادب العربي القديم اطلعه الواسع
الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الاغريق واللاتين
الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا
سيما الفرنسيين . كل أولئك خليق أن يحبب اليه الصحة
والمثانة والقوة ويبغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو
يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، وينبذ ما
يستطيعه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب
الدوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ،
واعتماد على فكر لا يتقيد الا بما يرضاه .

والى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا
القدر في ميزان الكتابة المنثورة فأنا رابح على هذا التقدير .
ولا أظن كذلك أنه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب
ولا استدراك ، فلنسرع أذن الى التعقيب والاستدراك . ولا لوم
ولا اجحاف .

فالدكتور صحيح الاصول في النقد ولكنه لا يوفق بين
أصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات .
وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب .
ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب .
وعلة ذلك كما أسلفنا ان القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان

فالطبيعة عنده لا تحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم الى الرأي والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف أليس الدكتور يوصي بمبدأ « الشك » أو مذهب ديكرت؟ بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب - أكثر ما يعجب - الا أشد الاعجاب ، أو اعجابا لا حد له ، ولا يقنع بما دون الامراف وترديد كلمة الاسراف ، ولا يفضب الذين يتحدث عنهم الا غضبا شديدا ، ولا يضيقون الا أشد الضيق ولا يتكلمون الا بصيغة المبالغة في معظم الاشياء .. ثم تنتقل من هذا الى تشكيك يذكرك « بان شاء الله » التي قالها جحا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال ان شاء الله ...

كان الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فانت تسمع منه : « أزعم أنني ضحكت » وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد أقول وقد لا أقول .. مع ان المرء لو أقسم جاهدا : « والله لازعمن . وتالله لاترددن ، وبالله لاقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك . والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هي والطبع على وفاق غير أنهما عرضة للاختلاف اذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة أن أصول النقد الغربي واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون .

ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة أن النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده في امتحانته وامتتهجانه . ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذي جعل

الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه في زي القديم ، أو هو الذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة لانه يجري في مطالبته على القياس .

وأقول للقلم : على رسلك ! الى أين ؟ ما أحسبك الا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فأنت تستوفي المثل وتأمين أن تزيد .

ويقول القلم : ما أحسبني والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحساب الدكتور أو « رصيده » كما يقولون في لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب وامتدراك واذا قلت ان الدكتور أمن امتحسان السخيف من الادب فاختلفك بعد ذلك في زيادة القيمة التي يقوم بها الجيد أو نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين .

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جريء العقل قويه ، مفلور على المناجزة والتحدي ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدي والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير املوبه الكتابي بعد درامته للاماليب الاوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل في الكلام الاوربي ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة في وقت واحد . فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذي اختاره أوفق الاماليب لذلك جميعا وأولها من نوعه في اللغة العربية . وليس فيه محاكاة لاسلوب اخر في اللغات الاوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضا لامتريملت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريراً محضاً أو درسا محضاً لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذي لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الاوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الازهرية. ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها الا ذلك الاسلوب الذي امتقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون . وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولجل هذا الابتداع يفتخر ما في كتابة الدكتور من امهات وتكرار .

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة . فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلد وتفيد فاستعدوا لامتحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الاماليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء .
وذلك وحده فتح قدير .

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت الى ذلك في نقدي لكتابه « في الصيف » .
وليس بالقليل بين أكبر الادباء العالميين من هو قوي لا يتعمق . فاني لأكتب هذا المقال بعد ان فرغت من قراءة مقال للشاعر الاسباني ميجويل دي انامينو كتبه ليمثل به رأي الاسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكرة هوجو لمضي خمسين سنة على وفاته . فاذا هو يقول ان عمله في اسبانيا على الاقل كان وامعا أكثر مما هو

عميق . وأرجو الا يحسب الدكتور انني أعود به الى التفرقة بين
السكسون واللاتين اذا أضفت الى هذا أن شاعر الامة الامبانية
اللاتينية يقرر أن « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين
وجهوا أدب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء
الفرنسيون ، وانه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في
عام ذكراه !

والآن وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمجمل الرأي مع الحيطة
والمعادلة والتربص فاني على ما أرجح كامب ولست بخامر .
فن اختلف تقديري فسأتهم محرر الهلال بافشاء السر واطلاع
مناجزي على ما أعددت له قبل أن يتأهب لي بسلاحه ، والمناجزة
يومئذ بيني وبين محرر الهلال .

من وحي أسوان

هبطت أسوان في هذا الشتاء ، وأنا أذكر قول دعبل
الخراعي :

هبطت محلا يقصر البرق دونه

ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

وان امرءا أضحت مساقط رحله

بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل في هذه الرحلة خاصة لاننا قضينا ساعة
من الوقت في القطار نتحدث عن السفر الى الصعيد بطريق
الهواء . ومسافته لا تزيد في هذا الطريق على أربع ساعات ،
وقد تنقص غدا الى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد
تنقضي ما بين عشية اليوم وضحي الغد .. ثم ينتهي الى حيث
يستمتع السامع اذا شاء الى صوت المتحدث اليه من القاهرة
والاسكندرية كما يتبادل الحديث مع جلسه في ناديه ، أو يدير
المفتاح في المذياع فيصغي الى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان
في الارض عن ابلاغ صوته اليه . أما الاطياف فما أكثرها في دور
الصور المتحركة الناطقة هناك ! ان منها لاطيافا تنتقل من
هوليوود . واطيافا تنتقل من الجيزة ، ولا تعجز عن التجشم ،
ولا يبدو عليها انها تعرف الاعياء كما عرفت أطياف دعبل
يرحمها الله .

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما

أكسل البروق والاطياف فيما مضى ، وما أمرع البروق والاطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتمنى ساعة من تلك الايام التي كان يتبرم بها قبل الف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون الى المكان الذي قصرت عنه أطيافه وبروقه ، ويغبطون أنفسهم على الحزم الذي ساقهم الى هذا المقام في خاتمة المطاف .

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة . أما قصته مع أسوان فخلاصتها أنه وفد مع أخيه ، عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاءه اياه فأنفذ اليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه ! ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل في هذا المقام . أهو أخوه في النسب يا ترى ؟ أهو أخوه في العربية ؟ أهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا . ولكنه أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قومه ولا عصره ، لانه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الاول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال Juvenal .

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر العربي لا يسلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لفنان العصر « بارييس » قذف به من روما الى جزيرة أسوان ، لان هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دومسيان !

قدم جوفنال الى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية في ظاهر الامر وأسيراً منفياً في حقيقته ، ولم يستطع أن يلعن دومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التي فرضت عليه ، فكذب وأقذع في شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه .

قال ان المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا الا
عبدوه حتى الثوم . وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل،
ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بها في الغذاء وفي
العلاج ، وجاء المحدثون في عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا
سموه ماء الحياة .

وقال ان المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه
الدعوة أن أناسا من أهل كوم أمبو الذين يعبدون التمساح
هجموا على رجل من أهل دندرة قتل تمساحا فأكلوه !
والتمساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ،
حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس
ورجينا ملعونا عند آخرين ، أما ان الذين يقدمونه يأكلون
لحم قاتليه فتلک هي الفرية التي اتفق المؤرخون على تكذيبها ،
وحسبوها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على
الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم امبو
الاقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان
في الخاطر كما يتفقان في المزاج ، فكان جوفنا يعجب لمن
يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الاصول
التي لا تحتاج الى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة
ويسألونه عن قيلت فيه فيقول لهم انها منتجد صاحبها لا
محالة ، ويتفلسف فيمضي قائلا : « ان من يتقيك على عرضه
أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من
محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته
بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك » .
فهي طبيعة واحدة في الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس
والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على

الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين في كل ما تقوّلوه على الناس ، وما نظنهم منخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل اصابتهم الناس تنفيس عن بعض ما أصابهم منهم ، ولعلمهم شقوا بالعالم كما شقي العالم بهم . ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجّاء في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يرددان معنى واحدا عميقا في دلالة على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال في الالهجية الخامسة عشرة : « ان الطبيعة خلقت للإنسان الكريم قلبا رحيفا فأودعت فيه ينابيع الدموع ، وهي أكرم جانب في طوية الانسان » .

ويقول ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا

الله أدري بلوعة الحزن

وقد تكون الحاجة الى الهجاء كالحاجة الى البكاء ، في طبائع الشعراء ، فلنقل ان الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم في هذه الخلقة سواء .

وأعود الى دعبل فأقول ان الاعياء الذي ابتليت به أطيافه وبروقه ليست من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو امستقر في صعيد مصر ولا هو امستقر في صعيد حيث كان .

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداء الاثير وأطياف الستار الابيض نظر الشعراء الى أسوان بغير هذه العين التي تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا اليها بعين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل كمال الدين :

أسوان في الارض نصف دائرة
الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقى اذا
أقام والفتك الخليع معا
وحسنها ما أراك مبدعة
تروق الا بأختها شفعا
وقد حبيت الحياة الى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الابناء
من الشعراء :

ما الشيب الا نعمة
مشكورة فاشكر عليه
ما الفبن الا أن تمو
ت وأنت لم تبلغ اليه

وقائل هذين البيتين هو الاديب ابراهيم بن محمد بن
ابراهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها في النبوغ عجب ، ومن
هذه الامرة خاله النايفان أحمد بن علي الملقب بالرشيد ،
والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك في
العلوم يدل كلامه على علمه كما قال الرشيد :
ولن يستفيد البدر اكمال نوره
من الشمس الا وهو في غاية البعد

أو كما قال المهذب في وصف ليلة :
لو لم تكن نهرا لما عامت به
أبدا نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيها الفرقدين كأنني
دون الورى وجذيمة أخوان

وترفعت هممي فما أرضى سوى
شهب الدجي عوضا من الخلان

أو كما قال :

لا ترجُ ذا نقص وان أصبحت
من دونه في الرتبة الشمس
كيوان أعلى كوكب موضعا
وهو اذا أنصفته نحس
وكانا لهذا مبلوين بالحساد والاضداد ، ولا مبيما الرشيد
الذي قيل عنه انه تطلع الى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه انه
خلق من نار . فقال فيه ابن قادوس :

ان قلت من نار خلقـ

ت وفقت كل الناس فهما

قلنا صدقت فما الذي

أطفأك حتى صرت فحما

وقال فيه شاعر يماني ، وكان الخليفة قد أوفده الى اليمن
داعيا ومماه علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن وقال فيه
أحدهم :

بعثت لنا علم المهتدين

ولكنه علم أمود !

ولكنه كان لا ينظر الى الحساد نظرة الأقران والانداد ،

وقال في أمير رجاه فخييب مناه :

لئن خاب ظني في رجائك بعدما

توهمتُ اني قد ظفرت بمنصف

فانك قد قلدتني كل منة
ملكت بها شكري لدى كل موقف
لانك قد حذرتني كل صاحب
واعلمتني أن ليس في الارض من يفني
عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته
انصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس ، فقد بقي بعدهم
وحي أموان ووحى الزمان كما كان ، وكذلك يبقيان ! ..

في أرض الميعاد

قصة المدينتين

قلت لبعض الاخوان الفلسطينيين أن الله أنعم عليكم بحرية الاختيار في أمر واحد ، ولعله قال حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية .. (١)

انكم تملكون اختيار الاجواء والاهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون الى حسابكم أنتم لا الى حساب الافلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا في الشتاء ..

فنحن في مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو أربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون الى هذا الانتظار الطويل ، لان ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو الى برودة نوفمبر أو يناير في بعض الجهات ، وعندكم المكان الذي يتذكر فيه السمار معاطفهم اذا طالت السهرة كما تطول أبدا في ليالي الربيع .. وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم في أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الامكنة

(١) قام امام البيان الاستاذ عباس العقاد بهذه الرحلة في صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التي تناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين . وقد اشار فيها الى ما يجب على العرب عمله قبل ان تقع الكارثة .

نغمة الفكاهة الى قائد من قواء الحرب وهو في ميدان القتال ،
فكتب منه اللورد اللنبي الى وزارة الدفاع البريطانية بريقة
يصف بها احدى المعارك في أيام الحرب العالمية الماضية فقال :
« حلقت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الابيض
المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا
الارتفاع ! »

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شواطئ البحر
الابيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا
الشواطئ وارتفعنا الى هضاب رام الله أو « رام ايل » الفيحاء ،
ولكنني لم أندم على قضاء معظم أيامي في فلسطين بين الشواطئ
حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف المؤلف في
السنوات الماضية ، لانني لمست فيها عن كثب ذلك الصراع
العنيف الذي أحسبه أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين في
تاريخ المشرق أو في تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين
مدينة يافا ومدينة تل أبيب ..

ان المدينتين متجاورتان تقيمان في مكان واحد ، حتى ليبدأ
الشارع أحيانا في يافا وينتهي في تل أبيب ، ولكن السباق بينهما
سباق بين أقدم ميناء على شواطئ بحر الروم وأحدث ميناء
عليه .. أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطئ البحار .
كانت « يافا » علما مشهورا في التاريخ القديم قبل نيف
وثلاثين قرنا من الزمان ..

وكانت « الاسكندرية » جنينا في الغيب يوم كان موفكليس
ويوربيدس وغيرهما من شعراء اليونان يتغنون بجمال « يافا »
وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد »
التي ربطها الارباب الى صخرة الشاطئ عقابا لها على رفض
البناء بخطابها السماويين ! .. ثم ما زالت حتى نجا بها القدر

من وحش البحر وهو راصد لها ليقتالها .. فأصبحت بعد ذلك
كوكبا من كواكب السماء ..

ولا نحسب أن مدينة في الشرق الادنى عرض لها من تعاقب
السعود والنحوس ما عرض لمدينة « يافا » في جميع الدول وعلى
جميع العهود ..

فعمرت وخربت مرات على أيدي البشر، وعلى أيدي الزلازل
والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التي تداولتها
من عهد تحوتمس وسنحاريب ، الى عهد العرب والصليبيين ، الى
هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة ،
وان كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لانها قد صمدت في
تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذي هي
فيه الآن .

كانت « يافا » تعول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة
وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع
والشراء ...

فأصبحت في جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة
على قدميها تناضل نضالها المجيد في مسيل البقاء .
فالموالح والثمرات التي عرفت باسمها من قديم الزمن لا
تلقى اليوم في الامواق القريبة ذلك الترحيب الذي تعودت أن
تلقاه الى زمن غير بعيد .

والصناعة – وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون –
قد منيت بالمزاحمين الاقوياء في تل أبيب وما وراء تل أبيب من
بلدان الشرق الادنى .

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن الى ميناء حيفا الذي
تنتهي اليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو الى ميناء تل
أبيب الذي بناه مجلسها البلدي ومد الى جانبه ذلك « الكرنيش »

الطويل محاكيا به كرنيش الامكندرية في كل شيء .. حتى في
« الاذرة الشامية » التي تشوى أو تسلق على زواياها ومنعطقاته ،
ويقبل عليها المتنزهون والمتنزهات الى أواخر الليل !
فهي اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ،
وحسبك من مدينة تفجع في مواردها جميعا ولا تزال ناهضة على
قدميها في اباء المناضل المستميت .

الى جانب هذه « الشيخة » الصبور فتاة ماكرة لعوب تتيه
عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب ..
تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، اذا نظرنا الى مولدها
الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة
والثلاثين اذا نظرنا الى نشأتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت
هذه الدولة تحب أن تستعين بالدعاية الاسرائيلية في مقاومة
روسيا ودويلات البلقان ، ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة
تزخر بالسكان وتحتوي من الوافدين عشرات الالوف ، ولكنها
كانت روضة للنزهة وقضاء ساعات الاصيل في أيام الصيف
والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها في أول
عهدنا بالظهور ..

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من
عواقبها السريعة لا من جانب الراعي ولا من جانب الرعية ..
أما اليوم فليست هي تلك الروضة البريئة التي يتنسم
لديها أهل « يافا » نفحات الغروب من نسيمات الربيع ..
يا له من صراع عجيب بين شيخة الامس وفتاة اليوم ..
وانه لصراع ظالم اذا ترك فيه الندان منفردين على النحو

الذي نراه ، لان « يافا » تقف وحدها هناك ولا تقف « تل أبيب » وحدها في ميدانها .. بل تقف هنالك ومن ورائها أمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعرفه المال من الاماليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من الخدع والاحابيل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذي يستهدقون له ولا يجهلون ان الاماليب القديمة لن تجدي وحدها في اتقاء هذه المنافسة التي تعزز بأحدث ما عرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال ..

فقد علمت من مدير المجلس البلدي بمدينة يافا انهم يعدون العدة لبناء الكرنيش الذي يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التي لا تزال بحاجة الى التنظيم .. وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغني بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والاندية في تل أبيب ..

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغي الشروع في انجازه قبل أن يطول التفكير فيه .. ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هي ان مدينة « يافا » لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلا بد لها من عون مريع كالعون الذي ترجع اليه غريمتها ، ليجري الامر بينهما على سنة الانصاف ، ويرجى منه اتقاء الهزيمة في هذا النضال .

الصهيونية والجامعة العربية

اذا عبرت « تل أبيب » رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما
يملاً جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل اليك أن القوم
منصرفون من محفل او مقبلون على اجتماع في منعطف الطريق ..
لان حركة المرور لا تنقطع في « تل أبيب » من ساعات
الصباح الباكر الى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لانك لا
ترى فيه أحدا يلوي على أحد ، ولا تكاد تلمح انسانا يوميء الى
انسان آخر بالتحية ، الا في العرض النادر الذي يرجع الى محض
الاتفاق ..

وأعجب من ذلك انك تنظر الى القوم فلا ترى على وجوههم
ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالامنية الروحية والمطلب
التراثي القديم .. فلا تملك أن تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء
قوم يهبطون الى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الارض مئات
السنين ؟ ..

وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معاهد
المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب »
شيئا من دلائل تلك الاخوة الروحانية التي تفيض على وجوه
الحجاج من جميع الاديان ، ولا يقع في نفسك الا أن القوم
مسوقون الى هذه الحجة الموعودة ، وان الذي وجدوه هنالك

غير الذي آمنوا به وصدقوه ..
وما في الامر من غرابة اذا رجعت الى الواقع ، او رجعت الى
المعقول ..

اذ كانت حجة اليهود الى أرض الميعاد غير الحجة الى عرفات
أو الى كنيسة القيامة أو ما شابهها من مناسك الديانة
المسيحية ...

فان المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج ويعودون
الى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا معالمها ..

أما اليهودي حين يهجر بلاده الى الوطن القومي بفلسطين ،
فانه يترك وطنه الذي نشأ فيه وألف معالمه ليستنبت نفسه في
وطن جديد .. ولا يفعل ذلك الا بدافع قوي من الامل في تحسين
الاحوال ، أو بدافع قوي من الحماسة الروحية .. فليس من
شك في أن اليهودي الناجح في وطنه – الاوربي أو الامريكي –
لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعا في ناحية
يجعلها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد
يمنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالغا ما بلغ به الايمان بوعود
صهيون ...

ولنذكر أن اليهودي قد ألف العمل في التجارة والصفقات
المالية ، ولم يألف العمل في الزراعة وتربية الدواجن وما اليها
من اعمال الفلاحة ورعي الحيوان .. فهو لا يقدم على تبديل
مألوفاته الا اذا اتفق الشظف والتعصب والامل في المجهول على
اقناعه بالهجرة وامداده بالبواعث النفسية التي تساعد على
هذا التبديل .. وقلما تعمر هذه البواعث الى زمن طويل ..

والذي نعتقده أن « النقلة الصهيونية » هي نقلة مصطنعة
عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا اليها ، وينفخ
فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد

الطوائف الاسرائيلية في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية ..
ولولا هذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كانت أملا من آمال
الخيال .

ظهرت في الايام الاخيرة مذكرات اللورد «هربرت صمويل»
الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة
البريطانية ..

وهو سياسي فيلسوف ينتمي الى أسرة اسرائيلية كبيرة
في البلاد الانجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف
زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في
أعقاب الحرب الماضية . ومن هذه المذكرات يتبين لنا أن ثلاثة من
عظماء اليهود الانجليز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية في
اعلان الوطن القومي بفلسطين كانوا معارضين لاعلانه متشائمين
من عقباه ، وعلى رأسهم « ادوين منتاجو » الذي كان وزيرا
للهند في وزارة لويد جورج الائتلافية ..

فحماسة الشعوب الاسرائيلية للوطن القومي هي حماسة
مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، وأقل ما يقال فيها انها ليست
بالحماسة الاجتماعية التي تقاوم جميع المصاعب وتذلل جميع
العقبات ..

وانما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت هذه
الدعاية ما صادفته من النجاح لامرين لا مناص منهما للمثابرة
على نشاط الحركة واستمرارها ..

هذان الامران هما : « أولا » سهولة الحصول على الوطن
القومي في أعقاب الحرب الماضية . و « ثانيا » صعوبة المقام في
كثير من الاقطار الاوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من
ضروب الحجر والاضطهاد ..

فاذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فصعب المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الاقطار الاوربية بعهد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فاذا هي أضعف من أن تقوى على الثبات الى زمن طويل .

نعم ان الصهيونية تعتمد الان – بعد القيام في فلسطين زهاء ربع قرن – على عاملين آخرين غير تلك العوامل التي بعثت الحركة من مرقدها في دفعتها الاولى ..
تعتمد الان على الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب وما يحيط بها من المستعمرات الامرائيلية .
وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التي تأسست في أيام الحرب الاخيرة على الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الادنى وما جاورها من الاقطار .
لكن الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب خليط من الاوطان المختلفة لا يمتزج بعبءه ببعض في زمن قريب .
أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم قوي من الصناعات الاوربية المتعطشة الى الاسواق ، ولها مزاحم اخر من الصناعات الوطنية التي تعتمد على الشعور الوطني والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر من حراسة الاسواق الشرقية حيثما تنبعت الى أخطار الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب بالازمات التي يسهل علاجها في هذه الاوقات .

كنت أقول لاخواننا الفلسطينيين كلما سألوني عن رأيي في

قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : انني متفائل قوي التفاؤل
عظيم الرجاء في مصير البلاد الشرقية على الاجمال ..
ولكنني كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذي أعنيه
وأعقد عليه عظيم الرجاء ..
فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذي يقنعك بأن العمل ممكن
وأنه مع امكانه مفيد ...
ومتى آمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الفائدة التي
ترجوها وان كلفك العمل أثقل الجهود ..
فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به الى ما
وراء طاقة الجهود البشرية ..
ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر اذا لم يقتصر
تهوينه بالشروع في العمل المفيد ..
والجامعة العربية خليقة أن تنتهز فرصة العمل في هذه
الآونة لانها فرصة سانحة بعد الحرب الاخيرة وفي مفتتح الحياة
الجديدة التي تستعد لها الاقطار الاوربية ، ممن كانت على صله
بالمسألة الصهيونية أو باضطهاد اليهود ؛ وقد تفتح أبوابها غدا
لمن يؤثرون العودة اليها من أرض الميعاد اذا عز عليهم الوفاء بما
وعدهم به الدعاة والزعماء ..
ولا غنى للبلاد العربية على أية حال - لخدمة نفسها لا
لخدمة القضية الفلسطينية وكفى - من تنظيم الصناعات
الحديثة ، وتنظيم الامواق في وجه المعاملات الطارئة عليها ، ومن
منع الاحتكار في أيدي فريق من الناس كائنا ما كان ..
واذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت
على الطريق السوي الذي يفضي بها الى النجاح في جميع قضاياها ،
ومنها قضية فلسطين .

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطيني قريب من المجتمع المصري في تكوينه وفي معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان الا في بعض التقاليد التي ترجع أولا الى امتزاج شعائر الامرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا الى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية .. فمصر تنقسم الى عاصمة وقريّة ، وفلسطين تنقسم الى حاضرة وبادية ، وان كانت ياديتها أخصب من بادية الصحراء وأقرب الى العمار ...

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا في تقاليد الامرة الفلسطينية سواء منها الاسلامية أو المسيحية ..

والبادية كما لا يخفى تشدد في المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، وأظهر ما تبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية في حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية .. فان بنات الامر في حواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة المصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لفتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور في الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفور في الطريق الا أن تكون من أمرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحميها بسلطانها وهيبتها أن تتعرض للاذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور ، وهم كثيرون ..

فاذا سمرت السيدة او الفتاة من البيوت المتومطة التي لا

تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوءها في طريقها ، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لأنها تستحق ما تلقاه في رأي السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها ..

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذي تمادى فيه بعض السافرات في بعض الاقطار الشرقية .. ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطيني في مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جد النفع في مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها ، لان الفتى الذي يصحب خطيبته أو زوجته في رياضته اليومية يشعر بالامانة الزوجية ماثلة أمام عينيه في بيته وفي طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التي تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده .

ولسلطان البادية القوي أثر في السيامة الفلسطينية . لان الزعماء هناك هم - بطبيعة تكوين المجتمع - رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحواضر ، ولهم من النفوذ في السيامة بمقدار ما لهم من الاشياح والاتباع والاقرباء وانصار العصبيات ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة في أشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من أجلها ..

وقد أضيف الى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرممية ، بل أضيف اليه ما تقضي به أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادئ التي تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذي يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاوله الاحوال التي درجت عليها السيامة في أيدي الرؤساء والعمداء . وقد سألتني بعضهم مؤالا صريحا في حفل حاشد عن

الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجها الى الخطاب :
الا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء
والعمداء ؟ ..

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب في
الحقيقة عن الاكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم
ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : ان الشباب
يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على اغفاله ، ولا
يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل أن
يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه اذا رزق الالمية النادرة
التي ترشحه لقيادة قومه فان هذه الهبة الفطرية لن تخفى على
أحد ، ولن تحول الحوائل دونه ودون القيادة التي يستحقها ، اذ
لا حاجة به يومئذ الى التوسل والرجاء في طلب الاعتراف له
بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لان الكفاءة الممتازة تفرض
مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء ..

والفلسطيني ومسط بين المصري وبين السوري واللبناني
في الاقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية في بلاده
أو في البلاد الاجنبية ..

فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون ..
وهو أجراً على انفاق المال من أبناء الامم التي تعودت
المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين
الارباح والخسائر ، منذ عهد بعيد ..
ولم يزل الى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة ،
ويعول معها أحيانا على التجارة الدورية التي تجري في مواسمها
على سنة الزراعة والثروة الطبيعية ..

وفي طبعه استقلال البدوي الذي تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعننته بما فيها من الموانع والقيود ..

وقد قال لي رجل من أذكى السوريين وذوي الخبرة منهم على القضية الفلسطينية : ان اخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لانها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه .

قال ذلك وقد مررنا بنخص من القش على شاطئ البحر في جوار « يافا » يملكه رجل يهودي يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه في أثناء الطريق ، أو لمن يقصدونه في طلب النزهة والامتجمام وقضاء فترة من الوقت في ضواحي الخلاء ..

قال دمشقي الاريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبته في ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الايام ..

فاذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هي الا أيام معدودات حتى يرى اليهودي خصبا قائما الى جانب خصه يبيع الطعام الذي يبيعه ويهيىء المائدة التي يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه في أيامه الاولى ليحول قصاد الخصى القديم الى الخصى الجديد ..

قال صاحبي الدمشقي : فليت الصهيونية تبتلى في هذه الديار بمن يناقسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : ان الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التهاون فيه ..

وأحسب أن المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة فرما رهان ، أو فارمان متقاربان ..

فمن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينيون في مصر زمنا ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالانشاصي والبليسي والطنطاوي كما ترى بيننا من يلقب بالغزي والرملوي والمكاوي ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون في حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء في التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت .. حتى « الملوخية » وهي صحيفة مصرية لا يتقنها الطهارة في غير وادي النيل - قد أكلناها في بيت أبي خضرة كما تؤكل على أفخر موائدنا التي تعزز بتقديمها في بواكيرها أو بعقباتها .. لان أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لانه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان .

* * *

مصر والقضية العربية

سألني فنان صهيوني : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم أكتمه أنه سؤال غريب . فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟ ..

قلت : وجه الغرابة فيه انك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومي في فلسطين وتحسبه من الامور الطبيعية التي لا تحتمل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون الى هذا الاهتمام .. نعم مضطرون اليه ولو لم ينظروا الى المسألة من الوجهة الشعورية أو العلاقة التاريخية الروحية، لان استقرار السلام في الشرق الادنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا اخطاره قبل وقوعها بشيء من الحيلة والمعاونة ، ولا استقرار للسلام في الشرق الادنى مع تهديد أمة كاملة في استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها .

فلاح عليه انه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب .. وكان غيره أصرح منه في السؤال - وهو كاتب في صحيفة « فلسطين بومست » الانجليزية يرامل بعض الشركات البرقية - فسألني :

هل تريد مصر أن تسيطر على سيامنة البلاد العربية ؟ ..

قلت : كلا .. ولو جاءتها السيطرة طيعة هينة بغير سعي منها ، لان الاساس الذي قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التي تشترك فيها ، وبذل الجهود المستطاع لتمكين الامم الخاضعة للحكم الاجنبي من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة في التوسع أو زيادة التبعية والاعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة في التعاون بينها وبين الامم التي تقاربها في الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والوجهة السياسية ..

ان الشعوذة السيامية وحدها هي التي تسول لبعض الأعداء ان ينتحلوا لانفسهم صفة الزعامة على جميع الامم العربية ، كما ينتحلون لانفسهم صفة الزعامة المطلقة على الامة المصرية ..

وانما يخدم أولئك الادعاء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة الى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن في الشرق بمبادئ الديمقراطية ، لانها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهي الى فائدة مرجوة لغير أولئك الادعاء فيما يتخيلونه من الاوهام والاحلام ..

انهم يتوهمون انهم يروجون في سوق المناصب على قدر البضائع التي يعلنون عنها ويدخلون في روع الاجانب انهم قادرون على تسليمها ..

فهم يبيعون ويشترون في قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود الى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات .

ونحمد الله على ان الوقائع قد افهمت من يفهم ومن لا يفهم ان مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشاءم به وتآباه ، وأنها

تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الابواق حول انفسهم ، ولا ينزهون مطلبا من المطالب عن صفائر التهريج والتهيج ، لانهم لا يعيشون بغير اجراس المزداد في مسوق المساومات .

ليس في مساسة مصر اليوم - بحمد الله - من ينطوي على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الابدية على هذا الشعب أو ذاك ، ولكنهم يعملون لانهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الاخوان أو الاعوان ، ولا يخدمونها - ولا يستطيعون أن يخدموها - من طريق الضجة الخاوية التي يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطامع الاجنبية .

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الامم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغي أن يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه أو على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الادبي كما يشمل الاستقلال في عرف العلاقات الدولية ..

فلا أفتيات فيه على حق أمة من الامم في الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحدا على التواكل ولا أن يحمل أحدا على تجاوز الحدود ..

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها ..

ذلك حق الاخ على أخيه والجار على جاره ..

وعلى كل أمة عربية ان تعمل ما في طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الانسان على نفسه بل واجبه لنفسه ..

وقوام الامر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل

وتعاون بين اخوان مستقلين في الآراء والاعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا اعفاء من واجب ولا تجاوز
في الحقوق ..

ومن دواعي الغبطة انني رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة
العظيمة – على هذا الاساس القويم – في كل من لقيت من ذوي
الرأي والمكانة بين خاصة ابناء الامم العربية ..
فهم – مع ايمانهم بجدوى هذا التعاون الاخوي في تخفيف
الاعباء ومضاعفة القدرة على النجاح – يعتقدون أنه قد ضاعف
شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لان عمل
أمة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على
كل فريق .

قلت للكاتب الصهيوني : ان مصر لا تريد السيطرة على الامم
العربية ولو جاءتها السيطرة بغير معي منها ..
وأحسبني أردد كل رأي رشيد في الاقطار العربية حين
أقول ان الضجة الخاوية التي سولت لبعض الظنون ان تهجس
فيها هذه الهاجسة قد ذهبت الى غير رجعة ، وان العمل الوقور
هو العمل الوحيد الذي يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وانه
لا يستقيم على أساس كما يستقيم على أساس التعاون الاخوي
في حدود الاستقلال المرعي ، ومرحبا بأمال الامم العربية في الامة
المصرية ولو طالبتها بالحصبة الكبرى من المعونة وتوجهت اليها
بالجانب الاكبر من الرجاء .. فحبذا مضاعفة الواجب كلما
تضاعفت الطاقة ، وحبذا ان تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق
الى تحقيق الآمال .

دين وفلسفة

الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعي » قبل كل شيء .

فالانسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعي » يقيني بالوجود الاعظم والحقيقة الكونية ، لانه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في ادراكه لانه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا .

ونحن نخطيء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وانه لا يعمل عمله الشامل الا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف .

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم .. وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ، ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين .. وهو في وجوده هذا يقول : « نعم » ويقول

« لا » ويحق له أن يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص .

وقد يخطيء القول في بعض الاشياء ولا يضمن الاصابة في كل شيء . ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطا الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير . لان « التقسيم المنطقي » يخطيء أيضا كما يخطيء العقل المجمل في أحكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير .

فاذا قالت البداة العقلية : « نعم .. هناك اله » فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لانها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب الى الايمان وأقرب الى قوله « نعم » في البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول « لا » قاطعة مانعة في هذا الموضوع .

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفه لاثبات وجود الله بانحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف : وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني ، وأن الاحاطة بالحقيقة الالهية سيء لا ينحصر في عقل انسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الانسان . وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الادلة والبراهين ، وهما نوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون . فاذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناؤه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا

المجال ، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر – فضلا
عن الاقتناع بالبداهة – كما يبدو من كل موازنة منصفة بين
الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الاثبات والنفي في مناقشات الخصوم
لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل . فليس للعقل البشري
خصومة في الاثبات ولا خصومة في الانكار .. وليس على أحد
عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الانكار كله في البحث عن
حقيقة الوجود .

ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي امتدل بها الفلامنفة
على وجود الله فانها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد وان
اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها
بأشيعها وأجمعها وأقربها الى التواتر والقبول وهي : برهان
الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الامتقضاء ،
وبرهان الاخلاق أو وازع الضمير .

محمد الانسان

من الاقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية ، انها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولو لم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب باسم « البولسيين » نسبة الى « بولس » الذي كان يدعى قبل ذلك باسم شاول .

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخي الغرب الى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الاسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولما بهذا التشبيه ان الفاروق كان ، ايام جاهليته ، أشد ابناء قريش ايداء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل ايمانه برسالة السيد المسيح . فانه آمن بها وهو متجرد لاضطهاد اتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في أكثر ظواهرها واشكالها ولكنها تنقضني عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الاديان ، وتلك هي الفرق بين اثر الدعوة واثر الداعي بالنسبة الى الرجلين ، فان بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق كان هو نفسه غرما من غروس محمد عليه السلام ، وكان في كل ما عمله بعد اسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب .

واجتماع الرجال الافذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس

العظمة الانسانية في نبي الاسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت او غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعواتها رهط من أفذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعي بالاجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبي الاسلام . وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له « يا أخي » مرة ونداءه له بكنيته « ابي حفص » مرة أخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل اثر « شخصي » ظفروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات .

كان للانبياء والدعاة اصحاب كثيرون او قليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين ابطال التاريخ ، ولم يجتمع قط في صحبة طويلة للانبياء أمثال هؤلاء الاصحاب الذين حفوا بنبي الاسلام . ولا نحصيهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم ابا بكر وعمر وعثمان وعليا وخالد بن جبل ومعاوية بن العاص ، ومعاذ ابن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح والمقداد ابن عمرو ، وغيرهم من السابقين المتلاحقين في هذا الطراز ، كل منهم أمة في رجل أو قائد على جيش ، أو مؤسس لدولة ، أو سيد بين علية قومه يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ في عشرته لنبيه انه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن ايمانه به ايمان المهتدي بهاديه المصدق الامين .

ذلك مقياس للعظمة الانسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الانسان ، ولا امتثناء لأحد من العظماء الدينيين كان أو من العظماء الدنيويين .

فالصدقة العالية أكبر برهان من براهين العظمة المحمدية

في صورتها الانسانية ، مع صورتها القدسية الالهية .
ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بني الانسان بمقياس
هذه « الظاهرة » النفسية الفذة في تواريخ العظماء .

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الثبوت بمعيار
النفوس ، اذا قلنا ان محمدا الزوج أعظم نفسا وخلقا من محمد
الصديق .

ان الاراذل من المحترفين بالتبشير الديني قد ابتدلوا كل
أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا
من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبونه بها ، حاشاه ،
بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامة الخلق من عباد الله .
ولو كان محمد كما أرادوا ان يكون طالب متعة في زواجه ،
لكان على النقيض مما كان - في حريمه عشرات من أجمل
العقائل والجواري ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ،
يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سماط
كسماط قيصر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهله والشيخة والتي مات
عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء
غير فتاة عذراء واحدة هي بنت صديقه أبي بكر الصديق ،
وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخيرن بين
الطلاق وبين البقاء على هذه الحال : « ياها النبي قل لازواجك ان
كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وامرحكن
سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان
الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

واذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوي كلها لم نجد بينها غير
باعثين اثنين كان لهما الاثر الاول والاخير في اختياره عليه السلام

لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية .
فقد بنى بثلاث من زوجاته لانهن بنات أصحابه الاوائل :
أبي بكر وعمر وعثمان ، وليس للأخوة في الله من منسد
انساني في بلاد العرب أوثق من الاخوة في النسب والمصاهرة .
وأولى زوجاته خديجة رضي الله عنها كانت في نحو الاربعين
يوم بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين ولم يكن وفاؤه لها
وفاء الحس والمتعة ، لانه فضلها على أصغر زوجاته
وأحبهن اليه : عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان ..

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عبد الله المخزومي
في واقعة أحد ، ورملة بنت ابي سفيان تركت اباها لتسلم
وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهي في
الحبشة ، فطلبها النبي من النجاشي وتزوج بها لكي لا ترتد
وهي عائدة الى أهلها . وصفية الامرائيلية خيرت بين العودة الى
قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا .. فاختارت
زواجها بالنبي عليه السلام .

واكرم ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات النبي
قد كان ذلك الزواج الذي خاض المبشرون في حديثه ، وزعموه
عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه ، فطلقها من فتاه زيد
ليضمها اليه .

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه
السلام رآها منذ طفولتها الى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات
اللاتي يفاجأ برؤيتهن لأول مرة في بيوت ازواجهن ، وانما كان
كرم النبي هو الذي حبب اليه أن يرفع من شأن الامير الغريب
فيجعله اهلا لمصاهرته ومصاهرة بني هاشم من أبناء عمومته ،
وقد شق على الفتاة ان تسكن الى العيش مع رجل من غير
اكفائها ، ثم شق على زيد ان يواجه النبي بتسريح بنت عمته

بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبي باعته على اعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة واعفاء الزوجة من افعال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الارقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الانسان بمروءته ، وأرادها النبي بتشريف الاسير وجبر الخاطر الكسير .

وان الانسان - حق الانسان - ليعرف من أمر محمد في اختيار زوجاته جانبا من المروءة المثلى في صاحب الدعوة الالهية ينبىء عن تلك العظمة الانسانية التي تمثلت في مكانة الرجل بين صفوة الابطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لانه انسان عظيم ، غاية ما ترتقي اليه شمائل الرجل العظيم .

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة اخرى من صفحات تلك المروءة التي يسمو بها - انسانا عظيما - الى شرف الرسالة الالهية . فمن وصاياه ، نبيا ، ان خير الناس خيرهم لنسائهم ، ومن رعايته لهن ، انسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات في العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له في العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تبد على وجهه اللمة القاسية ، ولم يلق أمراة بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه مسيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل روايتها خيرا من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التي تؤثر بالنقل والرواية ، فما انتقلت اليها منها كلمة زجر ولا نظرة منخط ولا لمحة تأنيب أو زراية ولم يكن له في حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب في صمت أو السؤال في غير اقبال ، وتلك شيمة من شيم الرفق الانساني تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من ابناء آدم وحواء .

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب ، فليس من لا يعرف الغضب بانسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة في موضعها ، وهي أحمد ما تكون من رجل اذا غضب حق الغضب استطاع ان يوقع بمن يفضب عليه ما ليس في طاقة الاقوياء بله الضعفاء . ولقد غضب النبي على أناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموا فغدروا بهم وانتزعوا منهم ما أحسنوا به اليهم ، فغضب الانسان محمد ، والنبي محمد ، حيث يعاب الرضا والهواة .

غضب على الغدر والشر والخداع والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير اهل للرحمة ، ولم يحرمهم الرحمة وهي ليست عنده أو ليست من الزم شمائله ، بل حرمهم رحمة ورحمة الله لان الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف في الانسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته في خير ما يحمد من انسان . ولقد يكون الضعف الانساني خير مقياس للعظمة الانسانية في أرفع مراتبها ، بل هو في الواقع اصدق قياسا للعظمة الحققة من منازل الابطال الاشداء من الرجال فان من يغلب بقدرته قدرة تضارعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التي هي أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تغلب نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذي لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقتها ولا أمل له في النصفة من غيرها ، ولا حصر لمآثر النبي التي شمل بها الضعفاء في عنفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها اذا ذكرنا منها تلك المروءة التي حبيت اليه أن يجبر خاطر الامير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه الى مقام مصاهرته في أقرب الناس اليه ، وتلك آية من آيات « الانسانية » الحققة أروع ما فيها ان تأتي من النبي العربي القرشي الهاشمي وليس أحق

منه باعتزاز النسب في مقام المصاهرة .
ان محمدا الصديق لانسان في الذروة من عظمة الانسانية .
وان محمدا رب الامرة لفي الذروة من رفق الانسانية .
وان محمدا المنتقم لفي الذروة من بأس الانسانية وعدل
الانسانية والرحمة بالانسانية .

ان محمدا السيد لفي الذروة من بطولة الانسانية .
وان محمدا الاب قد عرف ضعف الانسان فبكى بكاء
الانسان ، فكان في موضع ضعفه نعم الاب الانسان ، ونعم النبي
المرسل في آن .

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير ابراهيم على يديه ،
ونظر الى الجبل فقال : « يا جبل ! لو كان بك مثل ما بي لهدك .
ولكن انا لله وانا اليه راجعون » .

وكان النبي الصادق الامين اقرب ما يكون يومئذ من الانسان
الباكي الحزين ، فلما انكسفت الشمس وقيل انها انكسفت لموت
ابراهيم آبت النبوة على الاب أن يبلغ بالنبوة هذا المبلغ في سورة
الوجد عليها ، فقال الاب الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه :
« كلا ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد
ولا حياته » .

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق الانسان
محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله الى الناس : « والله أعلم
حيث يجعل رسالته » ، كما قال عز من قال .

ومحمد « الانسان » هو الذي استحق كرامة النبوة فصنع
في تاريخ الكون ما لم يصنعه قط انسان سواه : أربعمائة ألف
ألف من بني الانسان هم اليوم في مشارق الارض ومغاربها
يقرنون اسمه باسم خالق الارض والسماء كل صباح ومساء :
لا اله الا الله محمد رسول الله .

ليلة القدر

ليلة القير خير من الف شهر ..

والمتفق عليه بين جلة المفسرين ان ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم - كمعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاخبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة. اذ يجوز ان يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة . ويشير القرطبي وابن كثير الى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وان أخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب .

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الارجح ليلة السابع والعشرين منه لاسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن في ليلة من الليالي . لانه من

المتواتر ان النبي عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف مغار حراء ، وقيل له (اقرأ) فقال : ما أنا بقارئ ، الى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الامر الذي لا خلاف فيه أن سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الاشارة الى الامور التي حدثت كما قال الاستاذ الامام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور امر النبوة وتحرش قريش لايدائه عليه السلام » .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشریف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وان حكمتها الكبرى انها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة الدخان « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم » .

فهي ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف ، وهو اشرف ما يشرف به الانسان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات . ومن أجل هذا فضل الانسان على الملائكة ، لانها لا تتعرض لما يتعرض له الانسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول الى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحي المكلف المسؤول . وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالامر بالقراءة واقترن تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليفة من الكتاب المبين : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ، واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك ادماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم

على الملائكة ، فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكل اني أعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

وقد جاء وصف الانسان بهذه المزية بعد الامر بالقراءة في أول آية خوطب بها عليه السلام : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذي خص به الانسان ، ومعنى الامر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر انما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان، وشرف التكليف الذي رفع به الانسان الى منزلة أشرف المخلوقات وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة انه مسؤول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق جميعا لانه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله انه سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيي ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث وأطوال الحياة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالاله الواحد السرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وانما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التي ظلت تعدد الارباب وتخص كل رب منها بوقت وسمائه ، أو تشببه بما يعده الانسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من

بني نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس اياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك ، ويستنزلها العارفون بأمرار النجوم عندهم توملا اليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في احدى ليالي السنة ، وسرت الى بني امرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات الى عامة المسلمين ، فظهر في تلك الاساطير التي أحاطت باخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يتصل به شرف الانسان وشرف التمييز والتكليف الى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الاسلام في جملة ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والمثوية والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها الى أرصاد الليالي والايام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قداماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون الى اربابهم في مطلعها ان يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثناء ، لاعتقادهم ان ارباب النجوم تقضي في الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضي من أمور الخصب والجذب والرزق والحرمان والحياة والموت . وكان من عقائدهم ان للاعمار شجرة تخضر أوراقها أو تدبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضي عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح . وكان من عقائدهم مع هذا ان اخضرار الورقة وذبولها مرتهان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من اجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الامراتييون كل ذلك الى عيد من اعيادهم التسي
اختلطت فيها عبادة الاله بعبادة الارباب الوثنية ، ثم تسربت منهم
الى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب
ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا الى
ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند
البابليين ومراسم التفكير عند كهان امرائيل .
ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر الى منتصف شهر شعبان ،
مع وضوح نسبتها الى شهر الصيام في القرآن الكريم ، انما جاء
من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية اذ كان شهر شعبان
انما مسمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في
روايات الجاهلية ، فهو اشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن
شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب» الأعمار بين
الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الاملامية في
صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب
من دون الله .

فالعقيدة الاملامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما
تتمثل في التكليف والتميز ، وفي المخلوق العاقل المسؤول الذي
يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا
تنشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين اشباه هذه
الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الانسان بغير الاعمال
والنيات . وان المسلم ليعود الى اولامه الصحيح كلما احتفل بليلة
القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحسب ، وانه يدعو الله
فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير
والتذكير .

القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو ملكوه .

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكي عنهم يتتبع أثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص مسيرتهم في الزمان ، كما تقص السير في المواقع والجهات .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة . فجاء في سورة الكهف : « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » بمعنى تتبع الخبر في التاريخ .

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها الى معنى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهي تساق للعبارة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية .

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتذكير الاحياء بمصائر الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولين من الكلام المسطور أي المكتوب ، وقد تكون الكلمة احدى الالفاظ التي تعربت عن اليونانية، لان «الاستوريا»

عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أممهم « الالف والبيتا والجما » عندهم منقولة من الالف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس » اليونانية أي « القلم » منقولة عن العربية ، لان القلام أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم والقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيدہ التقلیم ، وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط في العربية ، يقال سطره وشطره وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لا شك في انتقالها من الامم السامية الى اليونان .

وقد ترددت في القرآن الكريم أخبار الاولين على مبيـل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة .. كما اغترت بها الامم الخالية ، وكانت هذه العظات ألزم العبر لتلك الامم التي آمنى بالاوثنان والارباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت أن أربابها لان تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ، ذهب ايمانها بتلك الارباب ، ووجب عليها ان تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها .

وفي القرآن غير القصص التي تدعو الى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الانبياء الذين أرسلوهم الى الامم الغابرة فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت النعمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم لينتفع بها من يعمل عملهم ، ويقفوا اثرهم ، ويلقى من قوله مثل ما كانوا يلقونه

من أقوامهم ... » وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك « كما جاء في سورة هود .

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة، تثبيتاً للافتدة وتبشيراً للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد .

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام، يرى بعض المفسرين أنها درس لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالاسرار والاشارات الخفية . ويرى الثقات ان القصة درس لاصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس ان مسعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وان العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم مرشؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الاحوال على حقائقها وآخر ينظر فيها بما يبدو له ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضي بشريعة من الشرائع تجري على قسطا من واحد ولا يختلف بين ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العادل الى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الواجب ان نذكر ان قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست

حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدعياء التحقيق - العلمي - منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلمهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين دافيا عندهم للجزم باختلاقه وحسابه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهمام الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الادنى وما جاور بلاد النهرين .

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك أصحاب الفيل ، وشكوا في الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سبقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها احيانا بين كتب الاديان . فلما حققوا الآثار وصححو المراجعة تبين لهم أن عاد وثمودا من أخبار بطليموس ، وان هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المدن التي ساخت بها الارض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسيني ، وان بقايا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كذبوه من الاصول أو من الصلات بين شعوب الامس

وأعراقه في أحاديث المتدينين ، وانهم هم في انكارهم وتحقيقهم
المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة
لم تكن مقبولة عند المخرفين الاقدمين . وهي خرافة العالم الذي
ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن ان كلمة «التحقيق» وحدها
سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار .
واذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا
يستطيعون ان ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب
الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم ان التعجل بالانكار جهل
شائن كجهل المتعجلين بالتصديق .

رمضان شهر الارادة

كان منا رجل من رجال الاعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الاعمال: « انني تعودت بين حين وحين أن اصوم اسبوعا أو اسبوعين عن كل طعام غير السوائل وافضل من السوائل عصير البرتقال » .

وقال السفير : « انني أصوم فترة كهذه واكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكنني أفضل عليه السوائل الاخرى » .

وقلت : « انني أعالج الصوم مرة في كل أسبوع ، واختار يوما من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وأفضل منها مغلي البايونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد أحتاج في أيام الاسبوع الاخرى الى امقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء » .

ولا أذكر مما قيل في هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكنني على يقين ان القارئ يسمع في مجالسه مثل ما سمعنا في ذلك المجلس وفي غيره . فان لم يسمع حديثا عن الصيام لاصلاح المعدة سمع حديثا عنه لاجتناب السمنة أو لزيادة نصيب الجسم من بعض الاغذية الحيوية ، او سمع عن الصيام السيامي الذي يراد به

فرض رأي أو الاحتجاج على معاملة ، فليس . أكثر من انواع الصيام في هذه الايام .

ولا حاجة الى الافاضة عن الكلام على أنواع الصيام التي يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له في مسبيل الجمال تشبه الرياضة التي يعالجها اللاعبون في مسبيل القوة والنشاط . فان حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه أخاف المصانع التي كانت تعول على الشراب الخفيف كالجمعة والمنقوعات وما إليها وتعلم ان وجود الجنس اللطيف مع الرجال اكبر مشجع على الاكثار من هذه الاثرية ، فاننا نقرا أخيرا عن الجمعة التي تخفف السمنه وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم « هندامه » واعتدال قوامه .

ووراء هذه المنشورات مصالح تلك المصانع على الاقل في بعض الاحايين .

ليس زماننا اذن زمان الاعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الاقدمين التي عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو في الواقع زمان تزيد فيه الوان الصيام ولا تنقص ، ويكثر فيه اختلاف انواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه امستحق ان يسمى عصر « صياميا » كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول « الصيام على اختلاف انواعه » لان الانواع التي ذكرناها أنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به ابناء العصر الحاضر ، فتلک جميعا انواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها ابناء العصر الحاضر ولا يطلق عليها وصف « الانواع الجسدية » .. لانها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الانسان ان يملك عادته كما يشاء .

وقد تفتح باب البحث في هذه « الصيامات » على أثر التوسع في دراسة الاديان والمقارنة بينها، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى اثر القول بإمكان توليد الامراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير أو الامتناع عن بعض أصناف الطعام .

وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنسك التي ملكو بها زمام اجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .
والصيام الذي فرضته الاديان احق هذه الانواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الاديان الكتابية فلا حاجة بنا الى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الاديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الاخلاق على نحو من الانحاء .
والدين الاسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام .

ولا خلاف بين الائمة في الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهي تقويم الاخلاق وتربيتها ، وان تعددت الاخلاق التي تذكر في هذا المقام .

فمن الجائز كثيرا ان صيام الغني يعلمه الرحمة بالفقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الاغنياء وكما ينبغي في كل فريضة عامة لا تخصص بانسان ولا بطائفة من الناس .
أما الحلق الذي يعم الاغنياء والفقراء ولا يستفاد من

فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو «الارادة» ألزم الصفات لكل انسان . ان الارادة لازمة في كل تكليف وفي كل تبعة وفي كل فضيلة ، فلا قسوام للفرائض والفضائل جميعا بفسير هذه الارادة .

وهي لازمة للفقير لزومها للغني ، فان كان احدهما أحوج اليها من الآخر فهو الفقير . لان الغني قد يجد عنده ما يعوض التفريط في أعمال الارادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير الا بزيادة الجهد والعناء .

الارادة اذن هي فضيلة الفضائل في الصيام .

ومتى غرفت هذه الحكمة فأداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها ، ولا حاجة بالصائم الى أدب غير أن يذكر انه يريد الصيام وانه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وان لم تكن مفروضة عليه .

فليس من أدب رمضان ان يتلمل الصائم وان يتجهم لمحدثيه وأن يبدو منه ما يدل على الضيق بالفريضة كأنه مكره عليها مطيع لها بغير رضاه .

وليس من أدب رمضان أن يهرب الصائم من ارادته بقضاء النهار كله في النوم تاركا للطعام ، لانه غافل عن مواعيده غير متنبه اليه .

وليس من أدب رمضان ان يفلت زمام الارادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له ارادة تصده عن الافراط في الطعام والشراب الى موعد الامسك .

وليس من أدب رمضان أن يصوم الانسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فان من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لاداء الفريضة اذن ، الا انه يريد لنفسه الهلاك . وهذا محرم عليه .

كلمة « الارادة » وحدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج الى امهات في تفسيرها وتعدد أنواعها .

ومزية رمضان انه فريضة اجتماعية مع فرضه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصلح لتربية الامة من تعويدها هذه الاهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا في كل سنة ، تتلاقى فيه على سنن واحد في الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا لشهر خلال العام .

واذا استطاعت الجماعة ان « تريد » ذلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس ثمة نمط من انماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال في الشدة أو الرخاء .
رمضان شهر الارادة .

أدبه أدب الارادة ، وحكمته حكمة الارادة ، وليست الارادة بالشيء اليسير في الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق الا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا أنها تناط بمريد .

ومن ملك الارادة فزمام الخلق جميعا في يديه .

لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثل التي تعاد ولا تمل امثلة للكاتب الرومي
« ديستيفسكي » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة
الاخوة كرامزوف .

وخلص الامثلة ان السيد المسيح عاد الى الارض وأخذ في
وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه وامتنعوا له
وأوشكوا ان ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق
هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش قاعته
وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به
عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون
عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ
القضاء فيك ..

أمثلة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضي في حقبة واحدة،
ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين والمفسدين .
ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان
ما تخيله بعيدا أو غريبا في بابه ، ولكنه في الواقع اقرب شيء الى
الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها الشيطانية
والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حربا على من
يتفهمها والعبوة في أيدي العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل
يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه
وينتحلون هدايته .

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب
ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام بريء منهم ،
وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التي
توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الاسلام لمثل
عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت
سيئاته مما يقبل التكفير .

وأما نفسى كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه
النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما
هي المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه
فصل الخطاب فيها ؟

أما نفسى فتخطر لي مسائل خمس يرجع فيها الى
شخصه الكريم ويغني جوابه فيها كل الغناء ، فلا حاجة ولا
اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما
أشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هي : مسألة الاحاديث النبوية ،
ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة
والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة
المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبي
الاسلام فيها .

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في
جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواياتها وامانيتها ، وقد

جعلوا من أقسامها الثابت والراجع والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون .
وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة في الكتب وعلى الالسننة .
وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهي القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب في التضليل وترويح الاباطيل .

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث في اشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .
!لا انها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته - في عصر التسجيل - فتلك ذخيرة الابد في ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن اول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

الخلافة والملك

وتأتي مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة .

تلك العضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من
المداد ، وبقيت وراء كل انقسام تذكره في الاسلام حين تذكر
السنة والشيعه والاماميين والزيديين والاسماعيليين
والنزاريين ، وحين تذكر الهاشميين والامويين والعباسيين
والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين .
بم اوصيت يا رسول الله في امر الخلافة ؟ وهل اوصيت
بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك
من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام اوصيت بكذا ولم أوص بكذا ،
فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا
هي بيضاء من غير سوء ، واذا هي بقية من بقايا الماضي تحال
الى دار المحفوظات للعبرة والحدزر أو يلقي بها حيث لا حس ولا
خير .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد
خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد
في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب .
ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون
جميعا فتلك هي النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل أضرارا
لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق
على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من

اجتماعية أو غير اجتماعية ؟
لا حاجة الى السؤال عن الديمقراطية ، فان مابقة
الاسلام فيها أصلح من كل مابقة .
ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت
الجبارين والمتجبرين .
ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها
ملعونة في كل دين .
وانما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما
قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » ..
ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج
وأسلم الحلول .
وتأتي على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق
المرأة وعن دعاوى المدعين في الاحكام والقوانين باسم الدين ،
وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشبهاه
الصحفيين .
ويسمع من النبي عليه السلام في أولئك كله جواب يفني
عن ألف جواب أو عن كل جواب .
ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين
المسلمين .
ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو
بسلطان البرهان في الاقناع .
ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينه انما أغرب وأصفق
ممن ينكرون الشمس في رابعة النهار .
وليس بالمستحيل عندي أن يعاندك المعاند ويكابر المكابر
في « اثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان
اثنين » .

بل ليس بالمستحيل عندي أن يكابر الكابرون في معنى الواحد ومعنى الاثنين وان هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام .

فاذا عاد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في أحكام الاملام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج في العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاها الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد في الاولين والآخرين ، فما هو الا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الدين لا يهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين .

لو عاد السيد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم – دستيفسكي – بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الارض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ايان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وانه ليمضي بين الشعب يضي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش – المفتش الاعظم – يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « انني اعرفك ولا اجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا » ؟

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطبقوا ما كلفتهم وثقيت مساعيهم بما طلبت منهم .. والان وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا

لتأخذ علينا سبيلنا وتحديثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية
الضمير ؟

« ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس اسعد
منه حين يخف عنه حملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية
ويوهمه في الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض اليه الامر في
اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد ان يفتح عينيه
وان يتطلع الى المعرفة وان يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم
ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك ان تسترده ،
وليس في عزمنا ان ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من
حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا ومسلطناه عليك
وحاسبناك باياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا
الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا ان نخلصه
منك وان ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .
قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى
وهذا الحوار « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا
الوعيد وهذا العداء بعبوس او ازورار ، وتقدم الى المفتش
الاعظم - وهو شيخ فان في التسعين - فلثم شفتيه وخرج الى
ظلام المدينة وغاب عن الانظار » .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء
بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الاخر الذي
يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب المجيب بعيد عن
الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الاعظم حين انذر الرسول
الكريم ان يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ،
بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه .

كلا . ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة ، واقرب شيء الى طبائع الناس ان يصنعوا ذلك الصنيع وان يتبعوا المفتش الاعظم في نغمته على الرسول الكريم .

واقرب شيء ان يكون لو عاد السيد المسيح الى الارض ان ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وقرسيين ينعي عليهم الرياء ويعلمهم من جديد ان السبب للانسان وليس الانسان للسبب ، وان العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به اللسان ويبدو على الوجوه ، وأن الوحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والاوراق .

أقرب شيء ان يكون أن ينعي على الناس ما نعاه قبل الف وتسعمائة سنة ، وان يجد انسان اليوم كانسان الامس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي اعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجة في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمرا جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون .

واقرب شيء ان يقال اذا طاف بالمخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء اجتهاد

فقيم يشقى المصلحون ، وقيم يهلك الشهداء ؟ وقيم يأتي الانبياء وينهبون ؟ وقيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فقيم كان هذا ؟ فقيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وقيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاءوا وعادوا .

وانصرفوا والبلاء باق

ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي
جاءت في صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي
أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي
تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أني
يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه
الانسان ثم يصل اليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء .

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائم ، يتقدم فيه
الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من
جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في
مرحلة من مراحلها الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسومة تهدينا الى القيام الصحيح في هذه
المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج
بالضمير وتبعته الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه، ومرات
حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل
الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه
يحملة وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا
يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء ؟

منذا يقول أن عناء الطب باطل اذا رأى الناس يمرضون

بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء
وموانع الشفاء؟

منذا يقول أن الغاية عبث لان الطريق اليها طويل، أو لانها
غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل
نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الامرار في حياة الانسان
منذ كان وأني يكون؟

ليست العبرة ان الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه
وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

واذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو
مستريح اليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر اليه
نادم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه
وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين
القصد والاضطرار .

انما الانسان غير الحيوان البهيم لانه صاحب ضمير ،
وانما يقام ضمير الانسان بالقيم التي يقومها والمثل العلي
التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها . وما
دام المصلحون والرسول يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون
امامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون وعملهم لازم ،
ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب
والجرائم بأرقام الاحصاء .

واذا قلنا يوما ان الانسان في هذا العصر يطلب الخير ولا
يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الانسان الذي كان لا
يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما
يعمل الحيوان .

انما تقام الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحواجز ،

وبما تزيده من نصيب الانسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال فادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الانسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غير ينتظرون الف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير مسعداء أبناء مسعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين اجهل منهم اذا اعتقدوا أن ديننا من الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران . أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الالفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ . لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لانهم يفكرون وينتظرون « الالفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير ! .

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير . ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس في العصر الحديث – ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم – أن عقيدة الانسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله

مرضاة للداعي أو ممتنا عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته
الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند
الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته .
فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لانها مسألة
الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا
من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة
يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة
الى آخر الزمان .

في الشعر العربي

المذاهب العربية

نظم الشعر في اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث باسم الفنون الجميلة، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الامم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر الى الخاطر لاول وهلة .. فان كثيرا من أشعار الامم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والاقسام بعد امتثاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والاعايرض ، الى الاوتاد والامسياب .

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية اخوات العربية . فاننا اذا أخذنا سطرًا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع ان ننسبه الى وزن محدودٍ أو مقياس متفق عليه ، ولا بد من اقتترانه بسطور اخرى يتم بها الايقاع ولا تطود في قول كل شاعر ولا في سطر كل قصيدة ، فهو والفاصلة النثرية التي يمكن اداؤها بالغناء او بالايقاع على حركة الرقص، متساويان.

ومن الشعر الغربي ما يعرف كل سطر منه بعدد من المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهي اليها هذه السطور

أما ضروب النظم التي تلتزم فيها القافية ، فكلها في نشاتها كانت تغني أو تنشيد على ايقاع الرقص ، تم استقلت باوزانها المحدودة على نحو مشابه للاوزان العربية ، وهي الموشحات التي اشتهرت عندهم باسم « استانزا » او اسم «سونيت» . ويدل كلا لاسمين على اصلها من الرقص والغناء .. فان استانزا كلمة ايطالية بمعنى الوقوف تقابلها ستاند Stand بالانجليزية ، وسونيت Sonnet من كلمة سونج Song بمعنى الغناء .

فالشعر الذي لا يضبط بالوزن او بالقافية موجود في اللغات السامية واللغات الاريه ، وبعضه لا يزيد الايقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ، وبعضه يضبط فيه الايقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا ينتهي الى قافيه ملتزمه في القصيدة أو المقطوعة الصغيرة .

انما الوزن المقسم بالاسباب والاوزان والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم . وكذلك القافية التي صاحب هذه الاوزان .

ومرجع ذلك الى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الاولى : أهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الاوزان .

فالامم التي ينفرد فيها الشاعر بالانشاء تظهر القافية في شعرها .. لان السامعين يحتاجون الى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة اذا اشتركت في الغناء لم تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لان المغنين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته ، فينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافي عند نهاية السطور ، وانما تنشأ الحاجة الى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم الى منشدين ومستمعين .

يقول العلامة جلبرت موري - وهو من ثقات البحث في الاوزان والاعاريض : « ان احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة . ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لان الاوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الاذن بعلامة ثابتة للوقوف.. وبغير هذه العلامة تثقل الاوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال . بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور . وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسله من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ ان اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية.. وان الصيغيين يحرصون على القافية لانهم يلتزمون الاوزان ، وان انتشار القافية في أغاني الريف الانجليزية يقترن الترخص في أوزان الاعاريض » .

ويستطرد الامتاذ موري الى الشعر الفرنسي فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء للمقاطع ، وأصبحت المقاطع بين موطلة وصامته - نشأت فيها من اجل ذلك حاجة مامة الى القافية ، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الامر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في اشعار الغربيين سبب لم يذكره الامتاذ موري ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم .

فحيث شاعت أناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الايقاع ، ولو لم تكن متناسقة الوزن على نمط محدود . لان الغناء بالكلام المنثور ممكن مع توازن

الفواصل وموازة السطور .

وأناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لانهم قبيلة متنقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتنشد الدعوات معا في صلواتها الجامعة ، وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهن مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم .. » .
وكذلك شاعت بين اليونان اغاني المسرح التي ترجع في نشأتها الى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها الى الامم الاوربية .
ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية ان شعراء الامم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا الى القافية والتزموا في مراعاتها أحيانا ما يلتزمه عندنا شعراء الموشحات .

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الامسلام صلوات جامعة منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وانما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل ، ينشده الحادي على انفراد وتصفي اليه القافلة أحيانا في هدأة الليل ، اذ يعتمد الحس كله على السمع في متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه .

لهذا استقل المنظم بحقه في الصنعة ، لان هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء . فانتظمت قوافيه وانتظم ترتيله انتظاما لا بد منه لكفايته ، مع بساطة أفانين الغناء .

وإذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك

ايقاع واحد نتابعه في خطوات الابل وفي خطوات الهرولة التي
تصاحبها على القدم . والى هذا الايقاع يرجع وزن الرجز على
قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد أدل على تمكن
العادة وعلى اصالتها في الحياة البدوية :

انا النبي لا كذب

انا ابن عبيد المطلب

هل أنت الا أصبع دميت

وفي مسيل الله ما لقيت

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل
دعاء مروى كيفما اختلف المختلفون في صحة الرواية ، كما
قيل عن امرأة أخزم بن العاص حين نذرت ولدها للكعبة
فقالت :

اني جعلت رب من بنيه

ربيطة بمكة العلية

فباركن لي بها اليه

واجعله لي من صالح البرية

فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة ،
ايا كان صاحب النظم او من ينسب اليه .

هذه المرردات الفردية هي التي ميزت النظم العربي
بامستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيبه ، ولو وجدت في الجاهلية
العربية صلوات جامعة تنشد فيها الدعوات المحفوظة لوجدت فيها

القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ،
أما من أناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من أناشيد
المسرح كما عرفها اليونان . ولكننا نعرف العرب من قصائدهم
الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا
يقوتنا منها غاية ما تدل عليه .

هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا
في القصيدة العربية ، وكانت نادرة بين الأمم السامية والأمم
الآرية على السواء .

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللغة . فالمصادر
فيها أوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام
الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة
تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء
أو يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الوزن الذي ينتقل إليه .

هذه أصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا
يستغرب معها أن يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وأن يكون
شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الأمم
الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الأنشاد الفردي في تثبيت
القافية واستقلال فن العروض عن فن الغناء في القصائد
العربية .

نعم إن اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق وتوليد
الأسماء من الأفعال ، ولكن المتأصلة بين هذه اللغات في أقسام
مشتقاتها وتفريع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في
قواعد الأوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها
في أخواتها السامية ، بل تدل في باب الأعراب خاصة على تفصيل

في العربية يقابله الاجمال او الاهمال في أخواتها ، وفي غيرها
من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الاعراب .



وواضح مما تقدم اننا قصرنا القول على النظم من حيث هو
أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت
فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة . أما
الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه
كل عصر بما هو أهله من الابداع او الزيادة او المحاكاة .. وانما
نعود الى القوالب والاوزان في كل عصر لنسأل : هل هي صالحة
لاداء المقاصد الشعرية ومجاراة الامم في تطورها الذي يمتد مع
الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الاداء؟
وهل تتسع للتعديل اذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من
مطالب التعبير ؟

ان تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب
العروضية لمجاراة اغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويبدو منها
أن أسامس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة الى
نقضه والغائه . فقد كانت بضعة بحور من اوزان الشعر كافية
لاغراض الشعراء في الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر
والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة
للغناء حين امتحدثت الحاجة اليه في الحواضر العربية التي عرفت
الغناء على ايقاع الالات . ثم اتخذت من هذه البحور أممات
وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول
فيها الاشطر أو تقصر مع التزام قواعد التردد فيها . واختار
بعض الشعراء نظم المثاني أو المزدوجات ، وبعضهم نظم

المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي أو تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع. ولما نقلت الألياذة اليونانية إلى النظم العربي لم تضيق بها أوزانها ولم يظهر سياق الترجمة أن هذه الأوزان قاصرة عن التنوع فيها على نمط غير هذا النمط لمن يشاء التنويع ، واستجابت الأوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة المترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة .

وقد أفرد الموسيقار المصري الاستاذ خليل اللاوردي فصلاً وافياً في كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبحث التوزين والايقاع وتطبيق العروض العربي على الضوابط الموسيقية فانهى من بحثه إلى إمكان التنويع في الأوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشاعر أن « يفتح أشكالاً غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد في تجاربه على الجهاز الفني المسمى بالمتروتوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمي الشكل ، يفتح من إحدى جهاته الأربع فينكشف عن قضيب معدني مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية .. فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن إلى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الأدنى النقرات المتناهية في البطء ويمثل الحد الأعلى النقرات المتناهية في السرعة » .. ولم يلجأ الموسيقار إلى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والأوتاد والأسباب التي يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها أقساماً غير أقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وإنما استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التي لا تحتاج إلى التخصص أو التوسع في فنون الألحان . فخلص من بحوثه

الموسيقية والعروضية معا الى نتيجة محققة خلاصتها - كما قال - ان اشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو ان حدودها - على ما نرى - اشبه بحدود الكلمات التي تتألف من الحروف الابدائية ، على حين ان الحروف الابدائية قلما تزيد على الثلاثين .

فاذا نظرنا الى ما تم من اشكال العروض ، وما يتأتى ان يتم منها مع التنويع والتوزين ، ثبت لنا انها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الانماط والاشكال فيه ، على نحو يتسع لاغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الأساس .



وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم في السهولة أو الصعوبة ، فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان - ينبغي ان ينتهي عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس . وما جهل الناس قط ان الكلام اسهل من الغناء ، وان المشي أسهل من الرقص ، وان الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشي عن فن الرقص ، أو بتحريك الاعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة في العاب الفروسية . فمهما يكن من تيسير الاوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص في النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل في سهولة الاداء ، وانما المطلوب ان تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التي تخرجها من عداد الفنون . ولا بد في هذا السياق من تفرقة أخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود في كل فن من الفنون ، فلا مسيل الى الامتغناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولا ضرر من الامتغناء عن القيود التي تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذي

يسلكه في عداد الفنون .

ومن تجاربنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا ان قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر في كل تصرف يلجئه اليه تطور المعاني والتعبيرات في مختلف البيئات والازمنة . فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوائل الازمان الى أن بلغت ما بلغت في منتصف هذا القرن العشرين .

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب في أمم الحضارة التي تتصل بنا وتتصل بها وتبادلنا ونبادلها مطالب الفنون والآداب كما يحدث الان بيننا وبين أمم الحضارة الغربية؟ ماذا تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما أو على انفراد ؟

أما في النظم فلا خفاء بالامر من أيسر نظرة الى آدابنا وآداب الامم الغربية التي نتصل بها في العصر الحديث .
فما لا تردد فيه ان هذه الامم لم تبدع في موازين النظم بدعا نستفيد منها ولم نكن قد سبقناها اليه في عصر من عصورنا ، فاذا التزموا الاعاريض معتدلين او مبالغين فليس عندهم ما هو أدق وأجمل من الموشحة في أوزانها التي تقبل التنويع والتشجير الى غير نهاية، والتي يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة في وقت واحد . فان اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافي حيث شاء يوشك ان يعفيه من قيودها كما يزيد الايقاع جمالا على جمال. ولم يبدع الاوربيون - حتى في شعر المسرحيات الملحنة - فنا من الاناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة الايقاع .

فاذا ترخص الشاعر الغربي في القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذي يسمونه النظم الحر أو النظم الابيض - فجهد

ما بلغوا اليه انهم عادوا الى الامطر المتوازية او الى الاكتفاء بالمقاطع التي لا تبلغ في دقتها مبلغ الاسباب والاوتاد والفواصل، وكل أولئك طور من الاطوار التي تخطاها الشعر العربي في الازمنة الماضية أو سبقتهم اليه أمة من الامم الشرقية وتوقف بها التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية .

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذه منه في أبواب التوزين والتنويع .

ليس في فن النظم جديد نأخذه من الاعاريض الغربية لم تكن عندنا أمسه المريقة ، ولم تكن عندنا اصوله وفروعه أو جذوره وأغصانه على حد تعبير « الموشحين » .

لكن الامر يختلف كثيرا في الكلام على « الشعر » أو الكلام على الادب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تجيش بها الحياة الغربية في كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها محكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير .

هذه المذاهب الشعرية تعيننا كما تعينهم وتمتد بأثارها الى أقوالهم وأفعالهم كما تمتد الى أقوالنا وأفعالنا .

لأنها من أطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في أدوار الثقافة على اطلاقها ، وان يكن مظهرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميادين الفنون .

هذه الدعوات أوسع نطاقا من أن يحاط بها في مقال ولكنها تقترب من الحصر المستطاع اذا جمعناها في أدوارها الانسانية العامة التي توشك ان تكون أمواجا دورية في هذا المحيط الزاخر ، اذ هي عالقة بطبيعة الانسان في جملتها ، وطبيعة الانسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان .. ونحن نعلم ان ابقراط حصر الطبائع الجسدية في أربعة

أمزجة، وهي المزاج الدموي والمزاج الصفراوي والمزاج البلغمي والمزاج السوداوي . ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الاجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الوعي الباطن والوعي الظاهر أقساما لا تنفذ ولا تحصى - فعاد الى الامزجة الابقراطية تيسيرا للفوارق العامة وجعلها أماسا لتجاربه النفسية التي تعد الى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء .

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفني في الانسان الى أقسامه الخالدة حين نقول : ان الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلابا للجديد ، أو أنهم كانوا اذا اكتفينا بقسمتهم الى قسمين اثنين : صنفا يمشي في مسط النقطيع وصنفا ينزع الى الاطراف ، امام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفككه بعض الجادين فأطلق على الصنف الاول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعيز ...

ونرى من تاريخ الامم الغربية منذ ملكت حرية التفكير انها دارت دورتها بين مذاهب الادب خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، وانها نزعته في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها أطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد .

ففي فترة اليقظة الاولى كان من الطبيعي أن ينزع الانسان الى استقلال « الشخصية الانسانية » في وجه التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والاحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الاحوال ، وهذه هي النزعة التي سميت بنزعة الابداع و « الحرية الشخصية » Romanticism .

ومن الطبيعي ان ينتهي هذا الابداع من كل جانب على غير هدي متفق عليه - الى شيء من الفوضى والشروء يستحب معه التوقف الى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود الى الاتباع والاطراد

على نحو جديد يناسب مطالب الزمن، فنشأت من ثم دعوة الاتباع
أو الاطراد الجديد Neo Classicism .
وإذا حكم اختلاف الطوائف حكمه بين انصار الواقع وانصار
الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين
المثاليين Idealists .

وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين
Naturalists وبين الفنيين أنصار الفن للفن Art for Arts sake .
ونقول ان الواقعيين والطبيعيين متقاربون لانهم جميعا من
أنصار الواقع ، وانما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات
الخيالية ، وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية: نزعات
الاغراق في التزويق والتنسيق . وإذا اقترنت هذه المذاهب جميعا
في عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول في هذه
الحلة الى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب
عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منهما لكثير من الآراء
واشتات من الاماليب .

ولا جدوى من متابعة العناوين التي تنتهي في الغرب بصيغة
النسبة المذهبية Ism فانها تنطوي جميعا في هذه الدعوات ،
ويحيط كل منها بعالم من الآراء والاسباب . ولكننا نجتمعها في
حدودها الواسعة اذا اكتفيينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم
والريالزم والايديليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد
يناط به عمل من اعمال البناء والاصلاح في عالم الفنون ، ولا
تزال حتى اليوم واقية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين
على الفنون فيما يستحق الخلاف .

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هنالك لبسا
على الاطلاق بين المذاهب التي أشرنا اليها وبين عشرات المذاهب
التي ينتحلها الدعاة على عجل منذ الحرب العالمية الاولى ، ويندر

أن تعيش احداها أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها التطبيق والتمييز .

فلا لبس على الاطلاق بين مذاهب الجذ ومذاهب الهزل في الاداب الغربية ، فمذاهب الجذ تدعو كلها الى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشيء غير الهدم والالغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر . وانه لمن الحظ الحسن ان تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فانها لو تناولتها لسمعنا بفن المعمار الذي لا حجات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه . وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والالغان ، ولا محل فيها للمعازف والالات . من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية Surrealism أو الذئبية Fauvism ... بل منها ما يسمى بمدممة التأتأة Dadalism ويقول أصحابه انهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتأت الطفل Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على السنة الاطفال . ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة ان التعبير الصحيح عن النفس الانسانية انما يرجع الى صورة الطفولة ورموز الاحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام أو كما يرسلها القاطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لانه يبحث عن المعنى ولا يكتفي بوقع اللفظة في الاذن أو من منظرها للمعين القارئة . فمن عناوين مارينتي امام المستقبلية « زانج تمب تيايم Zang Tumb-Tuum » ومن عناوين زميله أردينجوسوفيسي 18 + Bifs ما لا يفهم ولا يترجم . وانما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم

علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨) .
وقد عقب صاحب تاريخ الادب الايطالي على امام هذه
المدرسة فقال أنه لم يجاوز حدود السخف في شعره .. ولم يخل
كلام المؤرخ من مجاملة . لان السخف معنى يوصف بالرداءة ..
ولا معنى هنا ولا وصف لرديء أو غير رديء (١) .



ولا بد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الآداب
الانسانية والاداب الاوربية التي تظهر بينها فما هو موضعها
الصحيح ؟

موضعها الصحيح انها تمثل جانب السخافة الذي لا بد أن
يتمثل في بيئة يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارئ ،
ولا ينجل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجأته ،
وهم جميعا في غمرة من محن الحروب والفن والقلقل والآفات .
فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الاذواق والدعوات ؟
وأين هو هذا الجانب ان لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت
القنوت ؟

ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه ،
فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الامراض والعلل
والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض
ودرامتها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والادب
ونماذج الذوق والجمال .

ولا تفوتنا في معرض الكلام على الشطط الفني ملاحظة وثيقته
الصلة بموضوع الخلط الذي يقال عنه انه هو الفن الصحيح

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الادب الايطالي تأليف « أرنست هانش
ولكنز » .

أو أنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعي الباطن والسريه
الانسانية في أعماقها « اللامنطقية » على حد تعبيرهم المأثور .^١

فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة « اللامنطقية » في القرن
العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئاً واحداً فيه لم يسبقهم احد اليه ،
وهو اطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات
سحليل النفساني أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد
في الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحيانا الى رفع الكلفة
واطراح الحشمة والابتدال في اللفظ أو المعنى أو في كليهما ،
فيسترمس في الهذر واللفظ كأنه في اجازة من « نفسه الفضلى »
كما يقولون ، وينسب الى هذه النزوات شعر المجانة والهزل
وشعر الاباحة والجموح ، وينسب اليه كذلك ضرب من الشعر
الذي يخيل الى الناس انه محدثهم بالحكم والامثال وهو في أسلوبه
الهازل ساخر يضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون
اليشبغاوي (٨٠١ - ٨٦٨ هـ) في قصيدته البائية التي يقول
فيها :

عجب عجب عجب عجب

بقر تمشي ولها دنب

ولها في بزيها لبن

يبدو للناس اذا حلبوا

لا تغضب يوما ان شتمت

والناس اذا شتموا غضبوا

من أعجب ما في مصر يرى

الكرم يرى فيه العنب

والنخل يرى فيه بلح

أيضا ، ويرى فيه رطب

زهر الكتان مع البلس
ان هما لوانان ولا كذب
كيهود في دير ، خلطوا
بنصارى حركهم طرب

وأدخل من هذا في باب « اللامنطقية » مذهب من مذاهب
الزجل في اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الادوار المقصودة ،
فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون الى نهاية
الزجل ، ويحفظ من هذه الأزجال كثير في مجموعات هذا والاجيال
القريبة ، من امثلتها في كتاب ترويح النفوس لحسن الآلاتي
زجل يقول فيه :

كسرت بطيخة رأيت العجب
في وسطها اربع مداين كبار
وفي المداين خلق مثل البقر
في كل واحدة اربع قلاع حصار
وفي القلاع أقوام طولال الذقون
ودمعهم يجري شبيهه البحار
من دمعهم تزرع نجوم السما
في خلقة المشمش عديم المثال
وأحيانا يقسمون الادوار الى دور صاح ودور سكران . أو
يصوغون فيها المفارقات على السنة الصبيان كما يجري على السنة
العامة :

يا ليل يا عين معرفش اكذب
والضفدعة شايلة مركب
وأبو فصاده ريسها
والقط الاعور حارمها

الى أشباه هذه « اللامنطقيات » المتواضعة التي يضعها أصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم ان تكون « منفسا » يستبيحونه الى حين ويعرضون به « اللامنطقية» في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون اليها أنها من قبيل الصور الهزلية أو « الكاريكاتور » ، ولا يطلبون من الانسانية ان تحلها في محل فنونها وأن تنبذ المنطق في سبيلها .
فاذا كان لا بد من هذه اللامنطقية في الاداب العربية فعندها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون .

الشعر أسبق أم النثر ؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في احدى روايات « موليير » التي امستوى بها على عرش الفكاهة المسرحية في الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة في شخصية جوردان انه غني من محدثي النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايقة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التي لا تخطر على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحاتهم وأقوالهم ، فاذا هو كما قال يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيّل اليه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيل اذن أن كلامه طول حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كاد ان يقضي بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر اخيرا من الامتاذ .

أراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهذه العبارة فأفلح فيما أراد وضحك الناس مما قال ، لانهم أدركوا على البديهة من غير تطويل في البحث والامتقضاء ان السيد « جوردان » مخطيء في تصوره الساذج ، وأن النثر شيء غير

مجرد الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الشعر : وهو الكلام
الموزون المنظوم .

فاذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضروري اللزم في هذه
الحالة أن يكون نثرا لا محالة . قد يكون كلاما وليس بشعر
وليس بنثر ، لان المقصود بالنثر هو التعبير الادبي في غير نظم
أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الانسان طول
حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، اذا كان كلامه خلوا من التعبير
الادبي في المنظوم والمنثور .

واذا سأل السائل : أيهما اسبق ، الكلام أم الشعر ؟ فلا
محل للخلاف ولا لاطالة الروية قبل الجواب ، فان اللغة سابقة
للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء . ولكن السؤال الذي
يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ؟ ونعتقد
نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل - نعتقد هذا ولا
نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه
رأي يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضه
من الواقع شيء معلوم حتى الآن .

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن
الناثرين على العموم ، اذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو
المحفوظ في الاوراق .

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ
العرب كلاما منثورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذي نظموا فيه
قصائدهم المروية ، وما بقي من كلام الكهان المسجوع فهو - ان
صبح - أدل على قدم الشعر والقافية ، لان الكلام المقفى محاكاة
للشعر الذي تلتزم فيه الاوزان والقوافي ، ودليل على سبق
الكلام المنظوم للكلام المنثور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو مسجع
متطور ، لان التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر

من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء في اقدم العصور انهم مسجعوا ثم تطوروا فنظموا . ولم تزل امجاع الكهانة غير أوزان «الشاعرية» في طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع الى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المراتة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هي مرجع الباحثين عن أوائل الآداب الاوربية القديمة ، وهي شاهد آخر على سبق النظم للنثر في جميع الآداب ، لان « هومير » قد نشأ في زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه في بعض الاقوال « أرشيلوكس » الذي أشار في قصائده الى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون انه كسوف ابريل سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس في المحفوظات اليونانية كلام منشور يرجع الى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقي من الكلام المسجوع الذي يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذي يستعان به في الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع الى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس Thrasymachus وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الادب اللاتيني فقد كان من الواجب ان تنعكس فيه هذه القاعدة لانه الادب القديم الذي امتاز بالرمائل الماثورة لسعة أطراف الدولة وتجده الحاجة الى المراسلة بين مكبان تلك الاطراف المترامية ، ومنهم الأدباء والبلغاء . ولكن الثابت مع هذا ان الاغاني اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورهما ، وان مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب وأصحاب الرمائيل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الاديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والاوربية شبيهه بالمأثور عن آداب الامم الشرقية في جملتها ، فليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيتها الشعبية الاولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون . وقد يخطر على البال ان السبب راجع الى الحفظ لا الى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقي الشعر ، لان الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنثور . ولكنه خاطر مردود يسهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فان سهولة الحفظ نفسها تحتاج الى التعليل ، وليس لها علة الا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب الى الطبع وأدنى الى الفطرة وأغنى عن الصناعة ، وان الكلام الذي يصعب حفظه بغير التسجيل في الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفي فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الادوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه الى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتعويل على الذاكرة .

وقد يبدو للسيد « جوردان » أن تأخر النثر عن النظم شيء غريب ، لانه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ، وهي ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء .

لكن السيد جوردان مضحك كما اراده موليير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شيء . فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، اذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفي لظهور الشعر أن تظهر في انسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الاحياء . أما الكلام المنثور فما الحاجة اليه في المجتمعات الاولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي أن تتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة اليه !

ولا نخلط بين الخطيب والناثر فهما شيئان مختلفان ، فان الخطابة في المجتمعات الاولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا - على فرض التشابه بين الخطابة والنثر - قد نتصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والناثر ، لان ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التي تستمع الى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التي تهتم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث الى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث الى الغناء ، فقد تغنى الحي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول ان يصل الحيوان الناطق الى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النغم الموزون .



في حديث مروي عن استاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك - رحمه الله - أنه كان يعجب للذين يعرضون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وانه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل ان يميز بين الحروف وأنواع الخطوط . وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فان الأحرى ان يقال ان المغني الذي لا يعرف اسماء المقامات والانغام كالشاعر الذي لا يعرف اسماء البحور والاعاريض .

وقد وجد الغناء قبل ان توجد اسماء مقاماته وانغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد اسماء بحوره وأعاريضه ..

لكن العجيب حقا هو أن يوجد ناثر قبل أن توجد الحاجة الى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة تحتاج الى تدوين

الكلام ، ولو لم يكن صاحب النثر نفسه هو الذي يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى ان سبق الشعر لا عجب فيه ، وان سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولاهما بالسبق هو اغناهما عين الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون .

الشعر لازم

الشعر لازم في عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من
ألوف السنين ومئات العصور .

لا ينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل ..

بل هو ألزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها
اخواتها من صفائح الحديد والخشب وآلات النار والكهرباء .

وكلما غلبت المادة وصفائحها وآلاتها تحسس الانسان مكان
روحه ، وارتد الى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على نفسه :
ألا يزال انسانا بعد ، أو هو قد فقد الانسانية في كيانه وصار
مع الصاروخ واخواته آلة من الآلات ، وقطعة من الخشب
والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء .

وما كانت بالانسان حاجة الى أن يتلمس دخيلة حياته بين
جنبيه ، يوم كانت عشرته من الأحياء ، وطعامه من خيرات
الأحياء ، ومقامه بين صنوف الأحياء ، ورحلته على متون
الأحياء .

ولكنه في عصر الصاروخ ، أحوج ما يكون أن يتلمس موطن
تلك الحياة ، وأن يستمع الى نجوى فؤاده بلسان الحياة ، وان
ينظم الشعر ويحن الى النغم ويشهد صور الجمال والعطف في كل
منظور ومسموع .

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر واخواته من فنون الجمال ، اذ كان الناس لم ينظموا الشعر لانهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه ، وانما نظموه لانهم يحسون وينطقون ولأنهم يترقون مع الزمن فيزداد النطق عندهم بالجمال ، ويحسن الانسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان ، ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتغريد ، ولا الخيل بالصهيل ولا سباع الغاب بالزئير .

ولئن سبق الصاروخ الطائرة لن يسبق الصاروخ سباحات الخيال ..

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للانسان عن حصان الآبنوس ، وعن أجنحة واق الواق ، وسبقه الخيال فأملى على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة ، وكيف يكون الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين الا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وانما هي القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار .

ان الشعر لازم للانسان الناطق ، ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال .

ان الشعر الزم ما يكون للانسان في عصر الصواريخ ..
وان حقاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ وتعليه ، لانه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الانسان كيف يكون انسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين .

وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة ، وآيات كهذه الآية ، تنويها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج به والحرص عليه .

في السنوات الست الاخيرات – سنوات الصباروخ – صارت
الجائزة العالمية للادب الى ستة من الادباء : خمسة منهم شعراء ،
اوهم خيمينيز الاسباني ، وباسترنالك الروسي وكوسيميدو
الايطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني .
ومهما يكن من الرأي في انصاف جائزة نوبل العالمية ، أو في
نظرتها الناقدة الى الآداب والفنون فلا نكران عليها انها علامة
من علامات الزمن بصوابه وخطئه ، وبما يراه من لزوم وما لا
يراه .

ولا علامة للشعر اللازم في هذا الزمن ، أصدق من العلامة
التي تدل على أمم خمس : بينها من المشابهات والفوارق ما بين
الاسبان والروس والطلينان والفرنسيين واليونان .

إذا لزم الشعر في لغة من اللغات فانما يلزم لألزم ما فيه
وألزم ما في الشعر انه فن من الفنون .

والزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول ، توائم في كل لغة
ما طبعت عليه تلك اللغة ، وتوائمه في اللغة العربية – خاصة –
انها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل صيغة ، فليست فيها كلمة
واحدة تنعزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع .. لا شعر بغير
فن .. ولا فن بغير قاعدة .

والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجباً يستغربه السامع
ويستغرب الذي يسمع ويفقه ما يقال كيف يصغي اليه السمع
وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان
فيه .

يقولون ان قواعد الوزن تدعو الانسان أن يقول ما لا يلزم،
تكلمة للوزن حيث لا محل له من الكلام .

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنون
عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟
ماذا يصنع منشد الغناء ؟
ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟
ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟
الا يزيد المغني في غنائه ليطابق فيه بين الالفاظ والالحن ؟
أنبطل الالحن لانها تسومنا المد في الصوت وراء ما يلزم ..
كما يقال ! او لانها تسومنا الزيادة في الحروف والكلمات وراء
ما تتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة
المحمول والموضوع ؟
أنبطل الرقصة التي تسوم الماشي أن يخطو فوق خطوه أو
يقصر عنه باختياره ؟

ان الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير
اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنون
وليس الوزن زيادة في المقال بل هو قوام المقال كله ، الا أن يكون
من غير الفنون . وانما الشعر تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى
وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظام مقدور .

وملكة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير
حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول — ان كانا — زيادة
للمعنى وتوكيدا للآثر ، لا وقرا محملا عليه ، ولا فضولا ملصقا
به ، ولا لغوا مضافا اليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام
بين الالفاظ والمعاني والاوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم
لفظ الشعر ومعناه .

أمامنا مثل من أبيات لامرئ القيس وصفا للفرس :
 وقد أغتدي والطير في وكناتها
 بمنجرد قيد الاوابد هيكل
 مكر مفر مقبل مدبر معا
 كجلمود صخر حطه السيل من عل
 كميت يزل اللبد عن حال متنه
 كما زلت الصفواء بالمتنزل
 لا شك ان كلمات « الهيكل » و « من عل » و « المتنزل »
 قد جاءت لوزن القافية اللامية .
 ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى
 كيف ينقص المعنى والاثر ، ولو كان من الكلام المنثور .
 نقول مثلا : « اننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطير بمنجرد
 قيد الاوابد ... »
 فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم
 والمنظر ، وانما يتم ذلك كله حين نقول انه قيد الاوابد هيكل
 أي أنه ضخيم جسيم .
 ولقد يقال ان كلمة اخرى تحل محل « هيكل » حين نقول
 « ضخيم أو جسيم أو مكين » .
 فهل ترانا نشعر بأثر لهذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل
 فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة والمثال ؟
 جواب ذلك عند من يهتمون القافية بزيادة الفضول ، ان لم
 يكن جوابهم هنا من فضول المقال .
 ونأتي بعد ذلك الى كلمة « من عل » وهي التي تتم وصف

الجلمود وهو ينحط مع السيل، فهل يتم الاثر بحذف هذه الكلمة؟
هل التذكير بانحطاط الحجر من الاعلى فضول وزيادة بغير
مدلول؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللغو
أو هو مما يتمم هذا الوصف للمطر بالتنزل والزلل عن متن
الصفواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الابيات من كلام المعري يقول فيها مفتخرا:

الا في سبيل المجد أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم ونائل

أعندي وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيب سائل

تعد ذنوبي عند قوم كثيرة
ولا ذنب لي الا العلا والفضائل

فمما لا شك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جاءت
في مواضعها هنا لان القافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعاني التي تؤدي بهذا النظم
وهذه القافية؟

ولماذا نعد فضائل اخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص
منه ، بعد ذكر العفاف والاقدام والحزن والنائل .؟ واذا كانت
كلمة العطاء مثلا تؤدي معنى كلمة النائل ، فلماذا نفضلها
عليها؟

ويقول ابن الرومي في وصف مغن كرية الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته
لا في غناء ولا تعليم صبيان

له اذا جاور الطنبور محتفلا
صوت بمصر وضرب في خراسان

فما لا شك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ،
بل لا شك ان « محتفلا » في الشطر الاول كلمة لازمة لتمام
البيت ..

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثاني : « صوت
بمصر وايقاع ببغداد » اذا كانت القافية دالية .. فما الذي
يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف الناثر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور فيقول : له
اذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب هناك .. فهل يكسب البيت
يحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو يخسر ويضعف ؟

ان كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المغني وتأهبه بجلسته
وايماءه واستعداد السامعين للاصغاء الى شيء حسن ، فاذا بهم
يفاجأون بالصوت الرديء ، فلا يكون اثره في نفوسهم كأثره
فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده الاتقان
والكمال ... فما جاءت « محتفلا » هنا فضولا لاجل الوزن ، بل
كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص واستكمال
اثر ، لم يكن لهما في النثر من داع منبه لهذا الاستدراك .

اننا نرده اليقين بالشعر اللازم والفن الألزم ..

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي
فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماته
وحروفه وكلماته ، تتزاوح فيه جميعا لتزداد بلاغة في الاثر

واينامنا للسمع ، واشبعا للاداء ، ونفيا للفضول ، وتجاوبا
بين الوقع والايقاع ... وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع .
من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلا حق له في
قول الشعر ولا في القول فيه ، ولان يسكت فلا يقول شعرا
ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير للشعر والفن وللمقول
والامماع .

التجديد في الشعر

إذا أوجزنا قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وان تناول أقدم الاشياء . هل شيء في هذا العالم الارضي اقدم من الشمس ؟ ان الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد ، وان لم يأت بكلام جديد .

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الارض الربيع ، ويجدد الشباب الامل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لأنها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لانه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، موصوفا على الصورة التي عهدا آدم في جنة الفردوس ، ثم عهدا أبناؤه في جناتهم على هذه الغبراء ! ... التجديد - في كلمتين - هو اجتناب التقليد .

أما اذا تعمدنا الاسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الاصح في حاجتها الى التجديد .

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على هذا الترتيب في حاجتها الى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشعر يبقى الف سنة ولا يطرأ عليه تغيير يذكر ، ويصلح

في هذه الحالة لشعر امرىء القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت اليه الا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات .

ونعني باللفظ هنا المفردات في غير الجمل والابيات ، وهي المفردات التي تطراً عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، أو يطراً عليها اختلاف الاستعمال من فترة الى فترة في حياة اللغة الواحدة ، ولا بد للشاعر من متابعة هذه الاطوار وقد يكون هو عاملاً من عوامل الزيادة والتصرف في الكلمات .

الا أن الجهد في تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد في تجديد الاوزان وتجديد الموضوعات. فالمعجم الشعري اليوم قريب من المعجم الشعري في عهد أصحاب المعلقات . أما الوزن فقد اختلف في عدد البحور ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قابلاً للاختلاف ، وفي حاجة الى الاختلاف .

كانت أوزان الشعر في الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الابيات. ثم تعددت البحور ومجزوءاتها، وتضاعف عدد الابيات في القصيدة الواحدة ، وطراً التنوع على القافية في الرجز ثم في التسميط والتوشيح ، ثم انتهينا الى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو الى الغاء القافية ونظم الشعر مرسلأ أو مطلقاً على الطريقة الاوربية ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جديرة بالنجاح في المستقبل . لان أعاريض الشعر العربي تستلزم القافية من حيث لا تلزم في الاعاريض الاوربية ، وقد يكون الاطلاق من القافية في الاعاريض الاوربية نفسها مقصوراً على المطولات والملاحم التي تصلح للقراءة وقلما تصلح للسمع . والشعر قبل كل شيء سماع .

والذي نعتقده او نشعر به ، أن تنويع القوافي أوفسق للشعر العربي من ارساله بغير قافية ، وانه يقبل التنويع في أوزان المصاريح والمقطوعات على أسلوب الموشحات ، فيتسع للمعاني المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن الموسيقية التي نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لا نحتاج الى تيسير أوسع من هذا التيسير ، كائنا ما كان موضوع القصيد وان طال غاية المطال .

تجديد قليل في اللفظ ، وتجديد أكثر منه في الوزن ، وتجديد أكثر من هذين التجديدين في الموضوع . فكيف يكون هذا التجديد في الموضوع ؟

ان صرف الشعر الى الاجتماعيات والاحداث العامة رأي من الآراء في تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به رأي آخر ينادي بالطابع الاقليمي في الشعر خاصة وفي الادب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحي أو شعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من ناحية ، لان الغبرة في الشعر بالملكة التي توحى معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذي نختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية أو عنوان الشعر الاقليمي ، أو عنوان الشئون الاجتماعية والمسائل العالمية .

ونحن اذا نظرنا الى الشعر من ناحية الملكة التي توحيه وجدنا ان ملكة الشعر الغنائي قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الاولى ، فهي تترده بين نغمات الغزل والفخر والحمامة والثناء ، او تترده بين ألوان الشعور الفردي البسيط ، ويندر أن تتخطاه الى الشعور المركب المتوشح ، وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة وفي عدة حالات .

فاذا كان للتجديد في موضوع الشعر وجهة ، فهذه هي الوجهة التي أمامنا ، ولتكن سبيلها الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية أو الاوصاف الاقليمية ، فانما العبرة بالملكة التي توحى المعاني في جميع الموضوعات ، وليست العبرة بالعناوين التي نخلعها على هذه الموضوعات .

والفرق بين الشعر الغنائي والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الربابة وبين الفرقة الموسيقية التي نسمع منها عشرات المعازف في نغمات متعددة مع التناسق بينها والوحدة في مجموعها . وينبغي أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التي نعزف عليها في وقت واحد . فان ألف ربابة توقع لنا لحنا واحدا هي أسلوب ساذج بغير تصرف . وقد يكون التصرف كل التصرف في ربابة ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتفلح في الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد الى التجاوب والتركيب .

ولكن الخير أن نبقي كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائي ، اذا كنا ننظم في الموضوعات الجديدة تقليدا للذين سبقونا الى النظم فيها ، فان التقليد نقيض التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكي الذهب باللون والصورة ولا يحكيه بالمعدن والقيمة .

ومن أمثلة الدعوات الزائفة الى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الاقليمي في اللغة الانجليزية - وأكثره من شعر الامريكيين - فيخطر له أن الشعر الاقليمي اختراع واختيار ، وينسى أنه واقع طبيعي لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفي أمريكا أقاليم لا تتشابه

في الموقع ولا في المكان ولا في المعيشة ، فهم لا يختارون الاقليمية في الشعر ولا في الجغرافية ، ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا في التربة المصرية دون أن يصبح قمحا اقليميا باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر :كن اقليميا فقد قال له كن مقلدا . ولكنه اذا كان من طبيعته منتميا الى اقليه فلا حاجة به الى الامر والارشاد .

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحى حرب طروادة الى هوميروس بالالياذة ولا تظهر في العصر الحديث الياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحي الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبغي أن ينظم الياذة في الحرب العالمية ، لان شاعرا قديما نظم الياذة في حرب طروادة . من أين لهم مثلا ان هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية الياذة لو أنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحرب هي التي توحى بالنظم فيها ؟ فقد تكون الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف في اشارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع . فان الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث والشعور ، فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحى اليه شعره دون العناوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي الا لان الشاعر

المسرحي يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه ، وهذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس المتعددة ، فان كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنظمه ، وان لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها .

واذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجده ليخالف ، وان لم يكن هناك موجب للخلاف . ان الذي يمشي على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشي على قدميه . ولكننا قد نضع في يده درهما وقد نزع به في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الايدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق .

نجدد فلا نقلد ولا نختلق ، ونحن مجددون كما ينبغي — وكأحسن ما ينبغي — اذا خرجنا بالشعر العربي من لحن الربابة الى لحن الفرقة الموسيقية ، شعورا منا بتعدد النغمات النفسية ، لا لمجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج .

أدبٌ وفنٌ

من هو الاديب ؟

كان جماعة من « الادباء » يتحدثون عن وظيفة الادب الاجتماعية ، فاختلفوا في الفرق بين وظيفة الاديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لي ان اسألهم: ومن هو الاديب في المجتمعات القديمة ؟

اننا نتكلم عن الادب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الادب بمعناه الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الامم وفي جميع الازمنة ، وهو ولا شك خطأ لا يصمد لاول سؤال .

فأنت اذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الاديب كما تعنيه ..

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا اذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟ ..

انهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وان كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الادب في الازمنة الحديثة . ولو انك سألت عن أديب في صدر الامسلام لفهموا انك تقصد

انسانا بريئاً من العنجهية البدوية واللوثة الاعرابية :

واني على ما في من عنجهية

ولوثة اعرابييتي لأديب

وقد تتحدث الى هذا الاديب الذي يدلونك عليه فيخوض معك في سمر شائق وطرائف شتى من أطايب الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجة ولا يحسب في زمنه من أهل العلم ، ولا يحسب في الزمن الحديث من زمرة الادباء .

ولعلمهم يدلونك على مثله في أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية في أواخر القرن التامع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الادباء .

أما معنى الاديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعاني المستحدثة التي تطورت فترة بعد فترة في العصور الاخيرة ، فكان الاوربيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة Man of letters

انه رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم ، لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هي الفارق بين العلماء والجهلاء . ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات التي يطلع عليها الدارسون ، ومنها الموضوع الذي خصص لمعنى الادب بمدلوله المصطلح عليه في هذه الايام ...

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الاديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهوناقد الشعر ؟ أهو المطلع على سير الادباء والقصاصين والنقاد ؟

انك اذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة الى وصف الادب بعد ذلك ، وكذلك تصف « القصاص » . أكتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..

فاذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص انه أديب قيل
لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الادب وناقد الادب وبين
الاديب ؟

حينئذ يلوح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضلال بعيد..
ونعني بالدليل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسأله في
العصور الاولى أن يرشدك الى أديب فيذهب بك الى رجل حسن
الحديث ..

فالاديب بكلمة واحدة هو « المحدث » في جميع العصور ،
وقيمته في كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن
يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه الآذان أم
تعبره الاعين في صفحات الاوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ، ومن
القصصي ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الاداب .. أيكون الاديب
شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر والقصة ؟ ..
أيكون عالما مطالعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل
بهم التاريخ .

نعم ، ولكنه في هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو قصاصا
وأديبا ، أو ناقدا وأديبا ، أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتما
أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال انه أديب . فهو محدث حسن
الحديث أيا كان موضوع الحديث ، وأية كانت صفاته الاخرى
التي تقترن بحسن الحديث .

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا في مجلس
الصبح أو محدثا في مجلس الامير .. وبهذا المعنى أصبح أديب
الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لم يجمعه بهم
مجلس أو مقام .

ولم ننزل بوظيفة الاديب لأننا جعلناه « محدثا » في العصور
الاولى أو في هذه العصور .. فانما العبرة بما يقال وبمن يقال
لهم في جميع الاحاديث .

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث
ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث ليروح
عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها ، ومن يحدث
ليسلي ويلهي ، ومن يسلي ويلهي كرام الناس ، ومن يقصد
بالتسلية واللغو غير هؤلاء الكرام .
وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين أديب
وأديب ..

فلا ينزل الادب لانه حديث ...

وانما ينزل الادب اذا نزل موضوعه ومن يستمع اليه ..

وقد نزل الادب في عصرنا هذا وصعد على جميع هذه
الدرجات ، فكان من أدباء العربية في أوائل القرن العشرين من
يوصف بالادب لانه مميمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية
في أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء فيجد من يصغي
اليه . وكل ما تغير بين أمس واليوم ان الحديث كان بالامس
موقوفا على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجهها
الى مئات وألوف ، لعلمهم لا يجتمعون بالمتحدث في مكان .

وربما صح أن شيئا آخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن
الادب - حيثما كان بضاعة تنتظر الجزاء - لم يكن ينتظر جزاءه
فيما مضى من غير الآحاد القلائل ، وأن الأديب كان يدون
أحاديثه في الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه لا ينتظر
الجزاء الذي يغنيه في عيشه من هؤلاء القراء ، وانما ينتظره من
فرد يتصل به ويعول عليه .

أما ايوم فالاديب على نقيض ما كان بالامس ، انه ينتظر هذا
الجزء ممن يوجه اليهم حديثه على يد المطبعة أو المذيع ، وهم
مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه ، لا
يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الاحوال .

وذلك هو باب الخير الكثير .. وذلك أيضا هو باب الشر
المستطير ...

لان استغناء الاديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب
الاستقلال في المعيشة والاستقلال بالرأي ، والاستقلال
بالشعور .

الا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه
الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد .

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لان الجماعة
طوائف شتى من الناس ، ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينص
الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وأن يقنع بالمهذب
الكريم من سامعيه ويطوي كشحه عن سواه ، فله ولا شك أن
يختار وان صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار .

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين
يشاء ، فيتحدث « المحدث » العصري وحده ، كأنما يتحدث
لنفسه .. ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ، وهو لا يأخذ نفسه
بكلفة الجليس في محضر الامير أو أشباه الامير .

وهو على كل حال « محدث » على نمط العصر وأسلوبه ،
وخليفة للمحدث القديم على ما كان لعصره من نمط وأسلوب .

وليس لوظيفة الادب في اعتقادنا تعريف أصدق من هذا
التعريف ، فانه هو التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين

الشاعر والراوية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ
بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من
مواد الحديث .

فمن هو الاديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل
مجتمع ، على اختلاف العصور .. وتساءل مرة اخرى : هل الادب
اذن وظيفة اجتماعية ؟

فان أردت أن الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو
مستمعين فالادب ولا شك وظيفة اجتماعية ..

ولكنك خليك أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية
شرط لا معدى عنه في كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعوه ،
فان الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث
منهم الا الآحاد المعدودين ..

كذلك لا تنس أن الاديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن
يكلم نفسه ولا يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء .. أو
يضمن المستمعين اليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالاصغاء.

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع ...
ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بإدراك
الحواس ؟ أو نطابقه بألفاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعي
القريحة والخيال ؟
كل أولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق
على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف فيما بينها
أو سبب اختلاف في التعبير والتمثيل .

فاذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه حين
أقول انه رقعة من الارض ذرعها ألف ذراع ، يتخللها جدول
ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا
وكذا في علم النبات ..

وصدقت في وصفه حين أقول انه جميل مريح ..
وصدقت في وصفه حين أقول انه يتألق كما تتألق العيون ،
ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفتت الثغور ، وتمرح
فيه النضرة كما يمرح صفو الشباب في الصبايا الحسان ، وتتغنى
فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات في الاعراس ..

أما اذا قلت انني رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت فيه
احداقا مؤتلقات ، وامستخفني المرح من قدود حسانه ،
واستطارني الطرب من ألحان عيدانه ، فما انا بكاذب ، وما أنا

بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي أوردتها مورد التشبيه ،
وكل ما هنالك انني حذف الكافات والكانات ، واعتمدت على
فطنة السامع في فهم هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع
بأسلوب يختلف في اللفظ ولا يختلف في المدلول .

ان كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا ان « أعذب
الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيما نراه .

وغاية ما في الامر أننا نطابق الواقع هنا بوعي القريحة
والخيال ، ولا نحب أن نطابقه بلغة الحس ، أو بلغة الحساب
والاحصاء ..

وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

مثل آخر قريب من هذا المثل ..

أعرابي غمر يغرب في رحلة مهلكة في مفازة موحشة ..
تسأله فيقول لك انها عامرة بالغيلان والسعالى ، متجاوبة
بأصداء الجن والعفاريت ، من يسلكها لا يسلم من شر سكانها
هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر جديد ..

هذا الاعرابي الغمر كاذب ان شئت ، ولكن في حساب
واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية .

فان الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصحراء ويمودون
منها فيقولون وهم صادقون : ما عثرنا في تلك الصحراء
بسعلاة ، وما السعلاة التي ذكرها الاعرابي مما يمكن العثور
عليه ..

ولكنه اذا كذب في حساب الجغرافيين أفما من حساب آخر
هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟ ..

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق
للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال ..
لانه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من
الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع . وغاية ما في
الامر أنه وصف الخوف محذوفا منه الكافات والكائنات ، ولا
يزال صادقا حين قال لنا : ان من يسلم من شر تلك المفازة فقد
كتب له عمر جديد ..

وكذلك قل في عرائس البحار ..
وكذلك قل في كنوز الارض وما يحرسها من المردة
والشياطين ..

وكذلك قل في همسات النسيم ونجوى الانفاس ..
وكذلك قل في كل واقع نطابقه بالشعور والخيال ، ولانقصر
المطابقة فيه على اللمس والعيان ..

وننتقل الى الشعر الذي يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع
فنذكر بيت أبي الطيب في وصف الاعد :
ورد اذا ورد البحيرة شاربا
ورد الفرات زئيره والنيل

فعلماء الطبيعة يقولون لك انه كذب .. لانهم يقيسون
سرعة الصوت في الهواء ، وسرعة الصوت في الماء ، وقيسون
المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرن النسبة التي
يتخافت بها الصوت فيجدون ان زئير الاعد الذي وصفه
أبو الطيب لا يصل الى النيل ، ولا يصل الى الفرات ..
أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..

ان قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الاثر مع سامع ذلك الزئير ..

لان زئير الاسد ملاً جوانب نفسه وشاع في منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..

ورهبة تملأ كل مكان في دنياه ، خليقة ان تملأ كل مكان على وجه الارض ، ولو في الساعة التي ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع في لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ في وصف شعوره بزئير الاسد انه وصل في الدقيقة الى بعد كذا من الاميال لما خالف الواقع في حساب العلم الطبيعي ، ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن الواقع في طبيعة الشعور .

وهذا هو الواقع الذي يعيننا ويعنيه من وصف الاسد وزئيره ..

كذلك يقول البحري في وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه

من منظر خطر المزلّة هائل

فيصيب في تمثيل الذعر كما يحسبه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا يخطيء الا من ناحية بعيدة من هذه الناحية ، لانه يقول عن الحمام المدعور انه يترنم ، وللترنم حال لا تشبه حال مدعور ..

ويقول أبو العلاء في سنخية الموت والحياة :

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزامم الاضداد
والواقع ان اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه ان يسخر اذا

استطاع ، وان هناك سخرية في تعاقب الموتى على مكان واحد
يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه . فاذا أعرنا للحد
سخریتنا فنحن لم نغير من السخرية ولا من الواقع ، ولكنها
« استعارة » لا تضيع معها الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..

فلن يكون الفن جميلا اذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع
ولكن أي واقع ؟ .. وأي مطابقة ؟ ..

الواقع في الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهي مطابقة
لا ريب فيها ، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى ، اذا كانت
المطابقات الاخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه في فن من
الفنون ، سواء أديناه بالقلم أم بالريشة أو بالازميل أو بالوتر
والمزمار ..

ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع
الحاضر أمامنا ..

فمن مثل لنا بطلا في غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق
في الفن كاذب في التاريخ ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ رديء ،
نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق في حسه وخياله
ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله .. فمنحه درجة النجاح
في الشعر ونضن عليه بها في التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا ابدا ، لانه لا بد له مر
مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة في الشعور ..

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفارته انها لو برزت الى
عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها .. وما قيل
عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق

خيالي يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها ونتصورها فيه ، لانه
ولد من شعورتنا ، فان لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه في عالم
الحس ولا في عالم الخيال .

* * *

المدرسة الرمزية

١ - حب الازياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الاوربية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في ارجاء الغرب كله ، تصدر عنه الازياء والآداب والعرف المتبع في جميع الطبقات العليا ، وكان لها الشأن - كل الشأن - يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضي فترة يسيرة من الزمن دون ان يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزى جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الادب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والازياء . فلما بدأت نهضة الاحياء الحديثة بامتحياء الاماليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديد . فتوالت الانماط بين اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرنامجية الى المدرسة الرمزية ، الى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة اخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الازياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس

بمختلف الاسماء والآراء ، وانما صادفت هذه الحالة معيناً لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .
فلا تجد في غير فرنسا ولما كهذا الولع بالمدارس الادبية المتلاحقة ، ولا سأمًا كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصيغة بعد صيغة .

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الاعلام البارزة من اذناذ الادب المعدودين ، وانما تجدها في بيئات الاوساط واشباه الاوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما اعلام الادب الفرنسي من أمثال موليير ورامسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناطول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من الشارات ، واذا بدت على احداهم مسحة من هذه الصيغة او تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الازياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، أو لون البساطة ولون التثنيق ، ومسمهما بعد ذلك بما تشاء من الاسماء .

٢ - ظهور الرمزية

وكان الصف الاول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الاماليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على السنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الادباء في المجاز على أنماط شتى من الاساليب المجازية التي توشك ان تتعدده بتعدد الآحاد . فاسلوب هوجو مجازي ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والابواق ومن الغنائم والاسلاب ، واسلوب لامرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تتهامس فيه الارواح وتتخافت فيه الاصداء .

واتفق في الايام الاخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ، ونزعت كلتاها الى الاسلوب المدرسي البسيط - أسلوب اللاتين واليونان - ممزوجة بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لان اصحابها يسمون انفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل ابولون وعرائس الفن في اليونان القديمة. فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الادب اليوناني القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد المصري على نمط لم يعرفه قداماء اليونان .

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « ان الفن للفن » بغير قصد اخر غير احكام التعبير وحسن الاداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرض الدعاء الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الاخير ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان افراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين .

٣ - مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الانسان .

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق او الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو وارد مرهوب . والكاتب الذي لم يعرف الحروف الابدئية يرمز الى المعاني بالشخص والرسوم ، ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لانها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والالغاز ، لانهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخالها ، فيختارون الرمز في التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح .

والنسوك المتصوفون يرمزون لانهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لانهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة ايضاح .

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للالفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه .

وقد يكون الرمز اختصاراً لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة ،
كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط الى الافلاك
أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ،
ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكتابة ،
وهي حالة الاضطراب والعجز عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان
قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة
لمعنى واضح ثم أثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز اسلوب متفق عليه لا
يحتاج الى مدرسة تنبه الاذهان اليه . فالخيال لا يستشير
مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات
أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ، والشاعر
لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والازهار فألبسها ثياب الاحياء ،
ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخيل والتشبيه فالناس لا
يحسبون من هذه المدرسة أو تلك ، لان المدرسة التي يصدر
عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان
الانسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك انه لا حاجة الى مدرسة لتعليم الناس كيف
يرمزون ويكون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد
يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في
دفة الافراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من
الاسرار ، وان العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وانه يفاجئنا
أحياناً بمعاني لا تترجم عنها ألفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة
والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير في

النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الاطراف الى الاطراف .

فالعالم الاوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الاول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ، وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والاداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعم ان العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الامرار .

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الاطوار ، فثار المفكرون انفسهم على العقلية Rationalism

كما ثار الفنانون على الواقعية Realism وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلامنفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الاداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور .

بل ظهوروا « متأخرين » عن رواد هذا المذهب في الاداب الاوربية الاخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الآداب ..

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوي في ارجاء القارة الاوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الى لغة الاغوار والكنائيات ، وكان كولردج وبروننج وسوينبرن وتنيسون من اعلام الشعر الانجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في رومو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين ، ليذكروا أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة في الآداب الاوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائفة مدعوة الى الظهور بدعوة التطور في التفكير والشعور ، ثم امتحنت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الاماس الصحيح .. وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا انه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لان شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز

أن يرمزوا الى كل وضع خليع ، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقارير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغرض منهما على الاوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب الى البديهة وأثبت في الافهام .

وما هو الا أن تلقفوا من الافواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعي الباطن » و « اللاوعي » المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامعة الى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والالغاز بالالغاز . وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لان رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والادعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الاغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فان الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، من شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الاجسام والاشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة

بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لانهم يستعدون لصناعتهم بمزج الالوان ونقل الاشباه لا بالتدريب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الالغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة - ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنائيات وأطيافا - تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ما شعر الانسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والاسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لان الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن امتعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الامتعارات الا حين اصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والمقلين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الاوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين .

كتب للمؤلف

صدرت عن دار الكتاب العربي

- ابن الرومي . حياته من شعره
- حياة قلم
- مطالعات في الكتب والحياة
- الحسين ابو الشهداء
- مراجعات في الاداب والفنون
- الاسلام في القرن العشرين
- يسألونك
- التفكير فريضة اسلامية
- الفصول
- عثمان ذو النورين
- رجعة ابي العلاء
- مطلع النور
- ساعات بين الكتب
- المرأة في القرآن
- بين الكتب والناس
- الانسان في القرآن
- الشيوعية والانسانية
- حقائق الاسلام وابطيل خصومه
- داعي السماء بلال بن رباح
- ما يقال عن الاسلام
- ابراهيم ابو الانبياء
- فاطمة الزهراء والفاطميون
- عبقرية الامام على
- معاوية بن ابي سفيان في الميزان
- عبقرية عمر
- ابو نواس الحسن بن هانيء
- عبقرية الصديق
- جحا الضاحك المضحك
- عبقرية خالد
- هذه الشجرة
- عبقرية محمد
- انا
- حياة المسيح
- سارة
- عمرو بن العاص
- عقائد المفكرين
- الفيلسفة القرآنية
- ابليس

فذل الكتاب

إن "العقائد" هو ذلك الجبار الذي
يرق ويرهف في "حياة قأم" حتى يكون
الطف من النسيم حين يفيض بوجهه عن
لواعج عاطفته المشبوبة، لكنه غرام جديد
أنه غرام بالحرية المطلقة والاستقلال الذاتي
السيح، دون انتقاص للغير ولا عنجهية
فردية... ومن أقدّر على الموازنة بين
أطراف هذا الموقف الدقيق من العقائد.
حقاً إن "حياة قأم" هي حياة
صاحبه بكل ما في تلك الحياة من
تقلبات الأيام والنضال المرير لبقاء
ذلك القأم حراً لا تضيله الوجاهة
ولا يعميّه المأل.

رياسة

Bibliotheca Alexandrina



0247914

نـ ٥٠٠ ق. ل. أو إمارتها

To: www.al-mostafa.com